

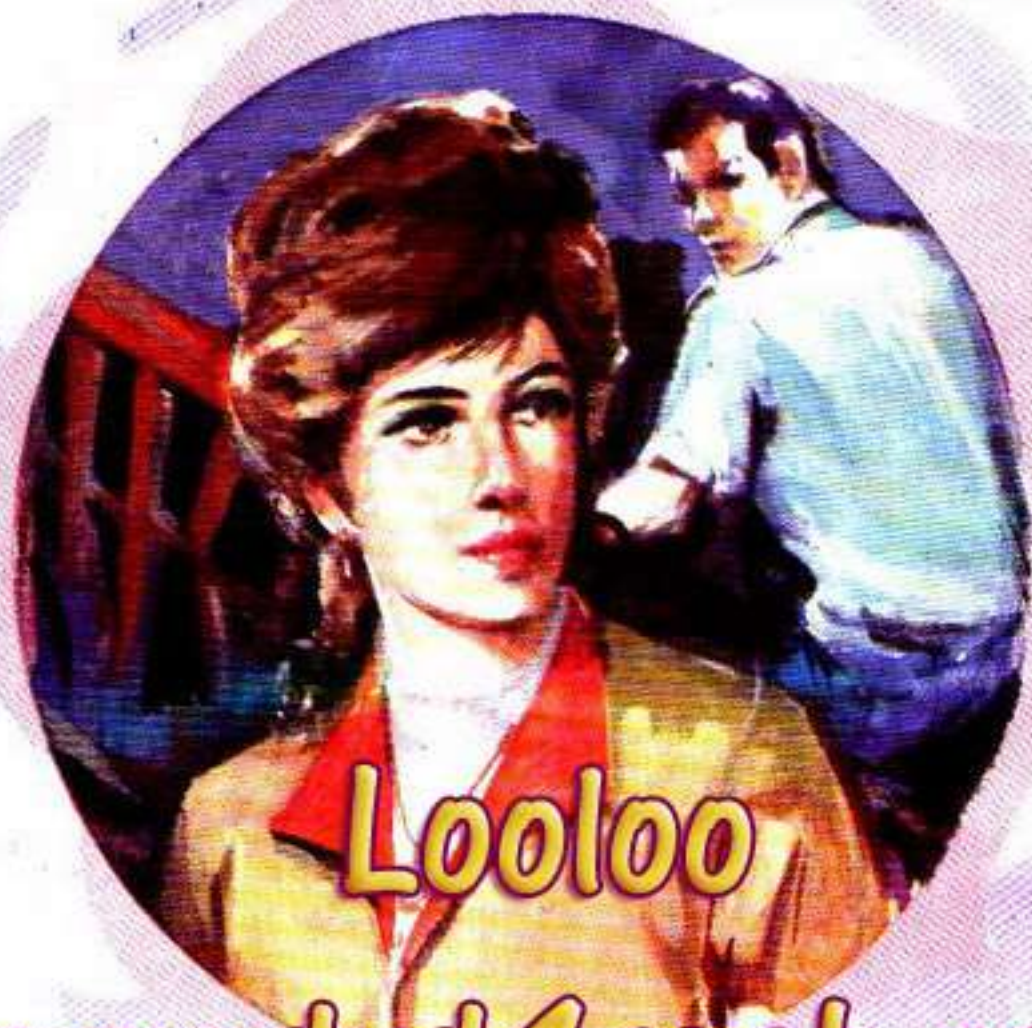


- روايات مصرية للجيب -

وداعاً يا حبيبي

زہور

57



www.dvd4arab.com

شریف سہوفی

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ب.البحر - بيروت - الجمهورية اللبنانية - ت. ٩٠٥٥٥٥

١ - قلب جريح ..

جلست (هيام) في الردهة الواسعة ، التي تتوسط
الفيلا ، تتطلع إلى الرجل الذي يهبط في درجات السلم ،
من الطابق العلوى ، بقامته المديدة ، وشعره الناعم ،
الذى اختلط بياضه بسواده ، وابتسامته الودود ، التي
قلما تفارق شفثيه ، وهو يتطلع بدوره إليها ، فسأله
في لهفة :

— كيف حاله الآن يا دكتور ؟

اتسعت ابتسامته ، وثبتت منظاره الطبي فوق
أنفه ، وهو يجيب :

— عظيم .. لقد استرد خالك صحته تماماً ، ولم يعد
يحتاج إلى معاودتى له .

ارتسم الارتياح على وجهها ، ودعته للجلوس ،
وهي تقول :

— من المستحيل أن تنقطع عن زيارتنا يا دكتور
(رفيق) ، فأنت صديق للعائلة ، ولست مجرد طبيبها .
تطلع إلى عينيها ، وهو يقول :

— أنت تعلمين أنتى كنت أتمنى أن أصبح أكثر
من ذلك ، ولكنك رفضت منحى الفرصة .

صمت برهة ، وأزاحت خصلة من شعرها إلى
الوراء ، قبل أن تقول :

— دكتور (رفيق) .. لقد حسمنا هذا الأمر من
قبل .

رفيق :

— ولكننى لم أفقد الأمل بعد .. أنت تعلمين
يا (هيام) أن مشاعرى نحوك كما هى ، وأنتى مازلت
أتمنى أن أجد صدى لها فى قلبك يوماً .. مهما تأخر
ذلك اليوم .

هيام :

— أنت رجل تفخر أى امرأة بالزواج منه
يا دكتور (رفيق) ، بما لك من سمعة طيبة وأخلاق
حميدة ، يشهد لها الجميع ، وقلب كبير عامر بالحب
والخير ، ولكن المشكلة تكمن فى أنا .

نعمم فى رجاء :

— لو منحتنى الفرصة فقط ، فسأثبت لك ..
استوقفته قائلة :

— لقد أغلقت قلبى أمام الحب والزواج منذ
زمن .

تناهى إلى مسامعهما فى تلك اللحظة ، وقع أقدام
الخدام ، وهو يهبط من الطابق الثانى ، فهمس (رفيق) :
— لن أناقشك فى هذا الأمر مرة أخرى يا (هيام) ،
ولكن إذا ما تغير رأيك ، وزايلتك عقدتك السابقة ،
فستجديتنى فى انتظارك دوماً .

وصافحها فى احترام واعتزاز ، وانصرف دون
أن يضيف حرفاً ، وتابعته هى ببصرها ، من خلف
زجاج النافذة ، وهو يستقل سيارته ، وينطلق بها إلى
مستشفاه ، وقفرت بها ذاكرتها إلى الوراء ..

تذكرت زوجها السابق (سعيد) ، والحب الكبير
الذى ربط بين قلوبهما ، وهى بعد طالبة جامعية ..
تذكرت كيف كادت تطير فرحاً ، يوم زفافها

إليه ، وقد بدا لها في تلك الأيام ، الصورة المثلى للزوج
المنشود ، حلم كل فتاة ..

ثم سافرت معه إلى السعودية ..
وفجأة انقلب كل شيء ..

تحول (سعيد) إلى إنسان آخر .. مخلوق قاسٍ
جشع .. مادي لا يحترم العواطف أو المشاعر ، كل
هدفه هو أن يجمع أكبر قدر من المال ، في أقصر
وقت ، وأسرع وسيلة ، وكلما حاولت أن تقترب منه ،
أو تفهمه ، أبعداها عنه في قسوة وخشونة ..
أصبح جبهما مجرد ذكرى ..

ولكنها أبداً لم تئس ، على الرغم من نفورها من
التحول الذي طرأ عليه ..

تحملت الكثير ، والكثير من أجل أن تعيد إليه
آدميته المفقودة ، ولكنها فشلت دوماً ..

ومن الغريب أنها لم تتقاعس يوماً عن التضحية من
أجله ، على الرغم من أنه لم يكن أبداً بالرجل الذي
يستحق التضحية ، فلقد قاطعت أسرتها من أجله ،

***** ٨ *****

وحرمت أباه ، الذي مات غاضباً ، رافضاً لذلك
الزواج ، وضحت بوظيفة ممتازة ؛ لتسافر معه ،
وبرغبتها في الإنجاب ، حتى يقرر هو أن الوقت يناسب
ذلك ..

ثم كافأها على كل ذلك بورقة صغيرة ، أرسلها
إليها يوماً ، ليعلنها أنه قد طلقها ، وتزوج صديقة لها ..
بل أعز صديقاتها ..

ويوم استقلت القطار ، لتقيم عند خالها ، بعد أن
فقدت زوجها وأسرتها ، وكل شيء ، كانت قد
ودّعت تلك المشاعر التي عرفتها من قبل .. مشاعر
الحب والتضحية ، بعد أن علمتها التجربة المريرة أن
الحب هو خدعة الزواج ، وأن الزواج هو نهاية الحب ،
وبداية العذاب .. وكانت تعلم أن حكمها ظالم ، لا يمكن
تعميمه ، إلا أنها أرادت أن ترسخ ذلك المبدأ في حياتها ،
لتنزع قلبها من الخفقان لأي حب جديد ، وأي يد
تتقدم إليه ..

لقد بلغت الثامنة والثلاثين من عمرها ، وأوقفت

***** ٩ *****

حياتها لخدمة خالها (إبراهيم) ، ذلك الرجل الطيب ،
الذي يعاملها بكل حب وحنان ، كأنها ابنته ، بل إنه
يقضى معها من الوقت ما يزيد عما يقضيه مع ابنته ،
التي تعيش - بصورة شبه دائمة - مع أمها السورية في
(دمشق) ، حيث تتلقى تعليمها ، وتزور والدها في
إجازاتها الصيفية فحسب ، بعد أن تم الطلاق بين
والديها ، وهي في الرابعة عشرة من عمرها ..

كل هذه الأفكار دارت في رأس (هيام) ، وهي
تتابع سيارة الدكتور (رفيق) ببصرها ، حتى اختفت
من أمام عينيها ، فغمغمت في مرارة :
- لن يتحقق أملك أبداً يا دكتور (رفيق) ..
ليتك تعي ذلك .

فوجئت بصوت خالها (إبراهيم) يأتي من خلفها
خافتاً ، وهو يقول :

- ممتاز هو الدكتور (رفيق) .

تحولت إليه مغممة في ارتباك :

- خالي !! .. حمداً لله على سلامتك ، لقد

***** ١٠ *****

طمأنتني الدكتور (رفيق) على صحتك ..

تطلع إليها خالها بعينين حانيتين ، وهو يقول :

- ليت يطمئنتني عليك أيضاً يا (هيام) .

ضحكت ، قائلة :

- لماذا ؟ .. أقال إنني مصابة بمرض ما ؟

ابتسم قائلاً :

- لا داعي للمراوغة ، فأنت تفهميني جيداً ،

وتعلمين أن (رفيق) مازال يحبك ، ويصبو إلى أن

تصبحي زوجته ، و (رفيق) نوع نادر من الرجال ،

يعرف جيداً كيف يصون المرأة التي يقترن بها .

تهتت قائلة :

- لقد قلت شيئاً شبيهاً يا خالي ، يوم عرفتُك

(سعيد) .. كنت الوحيد الذي وافق على زواجي منه ،

برغم اعتراض باقي الأسرة ، وليتك وافقتهم ، فربما

كنت أنقذتني مما جرى ، فأنت تعلم أنني أحترم رأيك ،

وأقدِّره دون الآخرين .

***** ١١ *****

ارتسمت على وجهه معالم الشعور بالذنب ، وهو
يقول :

— لقد أخطأت في حكمي عليه بالفعل ، وربما
دفعني إلى ذلك تعلُّقك الشديد به ، فأنت تعلمين كم
أحبك ، وكم كنت أرفض حرمانك من إنسان تعلُّق به
قلبك إلى حدٍّ كبير .

هتفت في انفعال :

— كان ينبغي أن تعترض ، فقد كنت أنا مجرد
حقاء قلباً وقالباً .

حاول أن يهدي من روعها ، قائلاً :

— وما أدرانا أنه كان سينقلب على هذا النحو ..
وعموماً (رفيق) يختلف تماماً ، وأنا أعرفه منذ سنوات ،
فهو رجل عاقل متزن ، وقف حياته لعمله النبيل ،
حتى أهمل نفسه تماماً ، فبلغ الخامسة والأربعين دون
زواج .. وصدقيني يا بنيتي .. إنه لا يشبه (سعيد) أبداً ..
إنه نعم الزوج .

أجابته في عناد وإباء :

***** ١٢ *****

— هكذا يبدون جميعاً قبل الزواج ، أما بعده ،
فهم يكشفون عن ذلك الجانب البغيض منهم ، الذي
يعجزون عن إخفائه ، بين جدران شقة الزوجية .

ابتسم في إشفاق ، مغمغماً :

وما الذي رأيته خلف تلك الجدران ؟

هيام :

— لست أنا من تحكم على ذلك يا خالي ، بل
زوجتك السابقة ، التي طلقها بعد سبع سنوات من
زواج كان مضرب الأمثال في السعادة والهناء .

نكات كلماتها جرحاً في أعماقه ، فأطرق بوجهه

أرضاً في حزن ، فغمغمت في ارتباك وندم :

— معذرة .. لم أكن أقصد ..

حاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو

يقول :

— لا تعتذري يا بنيتي .. لم يحن الوقت بعد ،

لتعلمي سر انفصالنا ، قبل أن تصدرى حكمك ، ولكن

ثقي أنني لم أتجنّ على هذه المرأة أبداً ، بل هي التي ..

***** ١٣ *****

٢ - عودة الحفيد ..

قدمت (هيام) لخالتها قدحاً من الشاي ، وهي تقول :

- لقد تأخر جدى (حسن) هذه الليلة ، ألن يمضى أمسيته معنا ؟

ارتشف (إبراهيم) بعض الشاي ، وهو يقول :

- كلاً .. إنه مشغول هذه الليلة ، حيث يستعد لاستقبال حفيده العائد من (أمريكا) .

حاولت (هيام) عبثاً أن تتذكر شيئاً عن حفيد جارهم ، ثم لم تلبث أن تساءلت :

- هل تقصد ذلك الصبي الصغير ، الذى كان يأتى إلى منزلنا ، ليلعب مع (وفاء) ؟

ابتسم خالها ، قائلاً :

- إنه لم يعد صبيّاً صغيراً ، إنه الآن شاب وسيم ، فى الثالثة والعشرين من عمره ، يحمل درجة الماجستير فى الاقتصاد ، فى جامعة (كاليفورنيا) ، وهو يشبه أباه تماماً .. هل تذكرين كيف فقد والديه ؟

بتر عبارته بغتة ، ولاذ بالصمت ، فجثت (هيام) على ركبتها ، إلى جوار مقعده ، وقبّلت يده ، وهي تقول :

- بخالى .. لا ريب أننى قد أخطأت فى الكثير ، ولكننى أستحلفك بالله ألا تناقش هذا الأمر معى بعد الآن ، ودعنى أحيا إلى جوارك ، حيث أجد الراحة والسعادة ، أما الحب والزواج فأنا أشعر نحوهما بالخوف والكراهية ، ولقد حذفتهما من حياتى إلى الأبد .

مسح على شعرها فى حنان ، وهو يقول :

- لن نناقش هذا الأمر بعد الآن يا بنيتى ، ما دامت هذه هى رغبتك ، وسأترك الحكم لقلبك مستقبلاً .

نغممت فى حزن :

- نعم .. اترك الحكم لقلبي .. قلبي الذى وأدته بين ضلوعى ، إلى الأبد ..

هيام :

— أظن أن طائرتي قد سقطت في المحيط ، في أثناء

عودتهما من الولايات المتحدة !

ارتسم الحزن على وجه خالها ، وهو يقول :

— هذا صحيح .. كان ذلك منذ ست سنوات ،

والمؤلم أن ابنيما يحمل نفسه مسئولية موتها ، فلقد

رفض العودة إلى (الفيوم) ، خلال العطلة الدراسية ،

وطلب من والديه قضاء الإجازة معه هناك ، فسافرا

إليه ، ولقيا مصرعهما في حادث الطائرة ، في أثناء

عودتهما ، مما سبب لابنيما صدمة عنيفة ، ولقد بذل

جده مجهودات عنيفة ، ليقنعه بالعودة إلى هنا ، وكان

يرفض دوماً ، ولكن يبدو أن جده قد نجح في إقناعه

أخيراً ، مادام سيصل غداً إلى (الفيوم) .

شردت (هيام) قليلاً ، وكأنما تبحث في ذاكرتها

عن اسم الشاب ، قبل أن تقول :

— نعم .. إن اسمه (عصام) .. (عصام عبدالستار) ..

لقد تذكرته تماماً .. لقد كان دوماً شاباً مرحاً ..

***** ١٦ *****

كم أتمنى أن يكون قد تخلص من عقده ..

إبراهيم :

— سمعت أن جده سيتنازل له عن كل ثروته :

المنزل والمزرعة ، ومصنع الأعلاف ، فهو حفيده

الوحيد ، والرجل يريد تجنبه مشاكل الإرث مستقبلاً ،

وإغراءه بالبقاء في (الفيوم) ، فالحاج (حسن) يحتاج

إلى من يؤنس وحدته ، في سنواته القليلة الباقية .

هيام :

— لا ريب أننا سنلتقي بـ (عصام) كثيراً ، ما دام

سيعيم هنا .

— بالطبع .. لقد كنت أحب هذا الفتى كثيراً ،

وأستمتع بمجالسته ، ولكنني لم أره منذ كان في الخامسة

عشرة من عمره .. إن رؤياه ستعيد إلى تلك الذكريات

الحلوة ، التي كانت تجمعهم بابتني (وفاء) .. كم

أشتاق إليها .. لقد مر عامان دون أن تأتي لزيارتي ..

ألا تشتاق إلى والدها ، الذي يحبها من أعماق قلبه ؟

***** ١٧ *****

ومن أعمق أعماقه ، انطلقت زفرة حارة ..

استقبلت (هيام) الجلد (حسن) ، وهى تهتف
فى سعادة حقيقية :

— جدعى (حسن) .. كم تسعدنى رؤيتك ، لقد
تغيبت عنا كثيراً .

ابتسم الكهل ، وهو يقول فى وُدّ :

— إنه أسبوع واحد فحسب ، ثم لماذا لم تأتى
لرؤية جدك العجوز ، مادام قد أوحشك إلى هذا الحد؟
ضحكت قائلة :

— كنت أعلم أنك مشغول بغيرى ، وأن سعادتك
بعودة حفيدك لن تفسح فى قلبك مكاناً لسواه ،
حتى أنا .

— أهذا معقول ؟ .. أنت تعلمين كم أحبك ..
هل خالك هنا ؟

— نعم .. فى حجرته .

— دعينى أفاجئه إذن ، واعتنى أنت بالضعيف .

*** ١٨ ***

— أى ضيف ؟

تركها دون أن يجيب سؤالها ، وأسرع يرتقى السلم
إلى الطابق العلوى ، كأنما كان طفلاً شقيماً ، يسعى
لقليل من المرح ، على حين فوجئت (هيام) أمامها
بشباب ممشوق القوام ، وسيم الملامح ، على الرغم من
شحوبه ، وذبول عينيه ، فتسمّرت فى مكانها ، ولم
تدر ماذا تقول ، حتى غمغم هو فى هدوء وجمود :

— ألن تدعينى للدخول ؟

هتفت فى حماس مجامل :

— بالطبع .. تفضل .

أفسحت له الطريق ، فدخل إلى الردهة الواسعة ،
وراح يتأمل محتوياتها فى جمود ، حتى توقف أمام
صورة (وفاء) ، وقال :

— إنها (وفاء) .. أليس كذلك ؟

— بلى ..

— لم تتغير كثيراً .. أشياء كثيرة لم تتغير هنا ..

إننا فى (مصر) لا نميل إلى التغيير ، على عكس القوم

*** ١٩ ***

في الخارج ، فهم يتغيرون بسرعة قصوى ، كل يوم
هناك جديد ، حتى المشاعر يغيرونها بسرعة ، فأحزانهم
عاقلة قصيرة ، على حين أحزاننا نحن ممتدة طويلة .
أدهشها ذلك الحديث ، الذي لم تدرك منه شيئاً ،
فغمغمت في مرح مصطنع ، محاولة التغلب على ذلك
الخرج ، الذي جمعها به :

— أنت (عصام) .. أليس كذلك ؟

جلس في هدوء ، وألقى نظرة طويلة على السقف ،

قبل أن يجيب :

— وأنت (هيام) .. الفتاة التي كانت تؤنبنى
دوماً ، لأننى أسرق قطع الشيكولاته واللبان من حقيبتها .
ابتسمت (هيام) ، قائلة :

— في الماضي كنت تسمينى (أبله هيام) ،
وكنت دوماً مبتسماً ، على عكس الآن .

أجابها في جمود :

— في الماضي كنت صبيهاً في العاشرة ، وكنت
شابة مكتملة الأنوثة .

***** ٢٠ *****

— مهما مرَّ الزمن ، ستظل تفصلنى عنك خمسة
عشر عاماً ، تدعوك لمخاطبتى بنفس اللقب .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

— ولكنك تبدين كما تركتك آخر مرة .. نفس
الجمال والأنوثة ، وكأنما خشي الزمن أن يقترب منك .
ألم أقل لك إن الأشياء لا تتبدل هنا في سهولة .

— مجاملة طيبة منك .

— لست أجاملك .. إنها الحقيقة ..

— إذن فالصبي الشقي ، الذي كان يكتفى بسرقة
الحلوى من حقيبتى ، ينوى أن يفتحم اليوم مجالا جديداً
من مجالات الشقاوة .

— أتتصورين أتنى أغازلك ؟ ! .. عجباً !! .. لم

لا تستقبلون الأمور في بساطة ؟ لم تصرُّون على تحميل
العبارات معانى أخرى مستترة ؟ .. لقد رأيتك حقاً كما

تركتك .. جميلة شابة ، والحق يقال : لقد ازدادت

نضجاً وجمالاً ، ولقد كان من الطبيعى أن أخبرك بذلك

دون أن أقصد مجاملتك أو مغازلتك .

***** ٢١ *****

- حسناً .. ما دمت صريحاً على هذا النحو ، فلم
لم تجب عن الجزء الآخر من سؤالى .

- أى سؤال ؟

- أين اختفت إشرقتك وابتسامتك ؟

نهض من مقعده ، وسار نحو النافذة ، وأولاهها
ظهره ، وهو يتطلع منها فى صمت ، قبل أن يجيب :

- ضاعت .. ضاعت مع سنوات الغربة والوحدة ،
مع مرارة الفراق وقسوة اليتيم ، مع أب وأم قدما لى
كل الحب والرعاية ، وكافأتهما بميتة مروعة ، مع فتاة
لا تستحق ، تغلبت رغبتى فى البقاء إلى جوارها ، على
لهفتى لرؤية والدى ، فلقيا حتفهما ثمناً لجحودى .

شعرت بالألم والندم ؛ لأنها ألقت عليه ذلك
السؤال ، الذى فجّر أحزانه ، وتضاعف ألمها وندمها ،
حينما رأت عبثرة ساخنة تنسال على وجنته ، فاقتربت
منه مغممة :

- معذرة .. إتنى ..

قاطعها صوت مرح يهتف :

***** ٢٢ *****

- (عصام) ؟ .. أخيراً جئت إلى منزل عمك
(إبراهيم) !

استدار (عصام) مغتصباً ابتسامة ، ومسح دمعته ،
وهو يصافح الخال ، قائلاً :

- ما كنت لأمتنع عن دعوتك يا عمه .

تعانق الاثنان فى حرارة ، وجلس الجد (حسن) ،
فوق مقعد قريب ، وهتف بـ (هيام) :

- أعدى الشاى سريعاً ، وأحضرى لنا طاولة النرد ،
فلقد جئت لأثار من خالك ، فقد هزمنى سابقاً .

أسعدها ذلك المرح ، الذى ساد المكان فجأة ،
فهتفت فى ارتياح :

- على الرحب والسعة .. سأحضر كل شئ على
الفور ..

وانطلقت تشاركهم مرحهم ..

***** ٢٣ *****

جلست (هيام) أمام نافذة حجرتها شاردة ، وقد انتزعتها أفكارها وخواطرها بعيداً ، حتى أنها لم تشعر بنخالها ، الذى طرق الباب فى رفق ، ثم دلف إلى حجرتها ، ووقف يتطلع إليها لحظات فى حزن ، قبل أن ينحنى نحوها ، قائلاً فى عطف :

- ماذا حدث يا بنيتى ؟ .. ما الذى يدلُّك على هذا النحو ؟

مسحت دموعه سالت على وجنتيها ، وهى تجيب :

- لا شيء يا خالى ، لا تقلق نفسك بشأنى .

- كيف يا (هيام) ؟ إنك حزينة شاردة هكذا ،

منذ ثلاثة أسابيع .. ما الذى أصاب الزهرة المتفتحة ، التى كانت تملأ المنزل بهجة ومرحاً ؟ ما الذى ملأ عينيها بكل ذلك الحزن والاكتئاب ؟ ما الذى يدعوها إلى الجلوس شاردة حائرة فى حجرتها بالساعات ؟ .. أريحي قلبي يا بنيتى ، وأخبريني ماذا ألم بك .

***** ٢٤ *****

أرادت أن تهوّن له الأمر ، إلا أن نبرة حزينة ملأت صوتها ، وهى تقول :

- الأمر لا يحتاج منك إلى كل هذا القلق يا خالى ، فكل ما هناك أنتى أصبحت أميل إلى الوحدة والتأمل فى الآونة الأخيرة ، فكل إنسان يحتاج إلى بضع ساعات من الوحدة ، يراجع فيها نفسه ، ويعيد تقدير موقفه .

- أنت واثقة من أن الأمر لا يعدو كونه كذلك ؟

- أوكد لك أنه لا يتجاوز ذلك .

- حسناً .. لا تنسى أننا مدعوّان لتناول طعام

العشاء عند الحاج (حسن) .

ارتسم الخوف فى ملامحها ، وأطل من عينيها ، وهى تقول :

- ألا يمكنك أن تذهب بدونى ؟

أدهشه موقفها ، فقال فى حيرة :

- ألم أقل لك إنه هناك شيء لا أفهمه ؟ ! إنها المرة

الثانية ، التى ترفضين فيها الذهاب إلى الحاج (حسن) ،

على الرغم من أنك كنت تقضين هناك معظم وقتك ،

***** ٢٥ *****

فماذا حدث ؟ .. الأمر علاقة بعودة (عصام) ؟
اضطربت لدى سماعها الاسم ، وهزت رأسها
نفيًا في قوة ، وهي تقول :

- مطلقاً .. إن (عصام) في موضع شقيق الصغير
ثم إنه شاب لطيف دمث الخلق .

- ما سرُّ رفضك قبول الدعوة إذن ؟ .. لقد
استاء الحاج (حسن) كثيراً ، حينما اعتذرت عن دعوته
لك في المرة السابقة ، وسيحزنه أن ترفض دعوته هذه
المرة أيضاً .

تهتت في استسلام ، وهي تقول :

- حسناً .. سأرافقك هذه الليلة يا خالي .

لم تنه موافقتها حيرته وقلقه ، إلا أنه غمغم في
خفوت :

- فليشملك الله (سبحانه وتعالى) برعايته يا بني .

وأغلق الباب خلفه ، على حين غادرت (هيام)
مكانها ، ووقفت أمام المرأة ، تتطلع إلى وجهها الحزين ،
وعينيها الشاحبتين ، مغممة :

- لماذا لم تخبريه بالحقيقة ؟ .. لماذا كذبت عليه
هذه المرة ، وما فعلت هذا يوماً ؟ .. وإلى متى يمكنك
إخفاء الحقيقة عنه ؟ .

ارتسم الخوف على وجهها ، وهي تستطرد :

- ولكن كيف ؟ .. كيف يمكنني أن أخبره
بطبيعة ذلك الصراع ، الذي أعيشه مع نفسي في هذه
الأيام ؟ .. أخبره أن (هيام) ، التي آلت على نفسها
التصدي لرياح الحب ، قد وقعت في مهب هذه
الرياح ؟ .. أعترف له بأن مقاومتي تنهار ، منذ التقيت
بـ (عصام) ، وتكررت لقاءاتنا وأحاديثنا ، دون أن
نشعر بأن هذا الشيء الخفي ، الذي يجمعني به ، ليس
العطف والشفقة كما تصوّرت ، وإنما هو حب يتسلل
داخل مشاعرنا ونفوسنا ! .. أروى له عن الحرب
العاتية ، التي أخوضها ضد نفسي الآن ، وأنا أقاتل
ما بين الخوف في الحب ، أو الاستسلام له ؟ .. وحب
من ؟ .. (عصام) !! .. (عصام) الذي يصغرنى

بخمسة عشر عاماً .. ذلك الصبي الذى كان يخاطبني في
الماضى بلقب (أبله هيام) !! ..

لماذا هو بالذات ؟ .. أيعاقبني القدر ؛ لأتني
تجاهلت قلبي سنوات ، فيرسل لي من يفتححه ، دون
أن تناسبني ظروفه أبداً .

هزت رأسها في إصرار ، وهي تواجه صورتها في
المرآة ، قائلة :

- كلاً .. لست بالمرأة الضعيفة ، التي تستسلم
لعاطفة طردتها من حياتها ، بمثل هذه السهولة ، ولست
بالمراة ، التي تقع في حب شاب لا يناسبها .. هذا
مستحيل ، ولن أسمح له بالاستمرار .. لن أسمح أبداً ..

راقب (عصام) (هيام) في اهتمام ، بعد الانتهاء
من تناول طعام العشاء ، وبعد أن انهمك الحال والجد
في لعب الترد ، وبدت له مستغرقة في التفكير ، وهي
تبحث عن وسيلة حاسمة لتنفيذ قرارها الحازم ، بالنسبة
لعلاقتها بـ (عصام) ، الذي أدهشه تجاهلها له طيلة

***** ٢٨ *****

الوقت ، وانتهر فرصة توجهها إلى المطبخ ؛ لإعداد
الشاي ، فلاحق بها ، وقال في لهجة ، أراد أن يصبغها
باللامبالاة :

- كنت أراقبك ونحن نتناول الطعام .. إنك لم
تأكل شيئاً تقريباً .

قالت دون أن تلتفت إليه ، وهي تتظاهر بالانهماك
في إعداد الشاي :

- لم تكن بي شهية لتناول الطعام .. أليس من
الأفضل أن تجلس مع الرجال ؟

نغم بانفعال مكبوت :

- أصرار وجودي يزعجك إلى هذا الحد ؟

نغممت في توتر :

- ملاحظتك لي دوماً ستثير تساؤلها .

انفجر انفعاله المكبوت ، وهو يقول في حدة :

- دعك من حجبك السخيفة .. إنك تتعمدين

***** ٢٩ *****

الابتعاد عنى طيلة الوقت .. أذهب إلى فيلا خالك ،
فيقولون إنك غير موجودة ، وأنا أعلم أنك تتحاشين
مقابلتي .

أجابته ، محاولة أن تشيع في صوتها نبرة واثقة :
- كنت أحتاج إلى بعض الوقت ، لأراجع نفسي .
هتف في دهشة :

- لماذا ؟

تحولت إليه ، قائلة في ثبات :

- اسمع يا (عصام) ، فلنطرح كل السخافات
خلف ظهورنا ، ولنتطلع إلى الأمور بواقعية ومنطقية
وإدراك .

- أية أمور تلك ؟

- لا تتظاهر بعدم الفهم .. إنني أعترف
بما حدث بيننا من تقارب ، ولكن ذلك كان بسبب
الظروف النفسية ، التي نعانيها معاً ، ولكن من
المستحيل أن نطلق على ذلك التقارب اسم (الحب) ،

***** ٣٠ *****

فهناك عشرات الأشياء ، التي تحول بيننا وبين ذلك ،
وبدلاً من أن تنمادى في تلك الأكلوبة ، دعنا نعتبر
تقاربنا شبيهاً بما حدث بين أخ وأخته ، ولنقتلع أية
نزوة عاطفية عابرة من أعماقنا .

ضأقت عيناه ، وبدأ وكأن الألم يعتصره ، وهو
يقول في صوت مبحوح :

- أكلوبة ؟! .. أتطلقين على ما بيننا لفظ
(أكلوبة) .. ذلك الحب الكبير ، الذي داوى جراحي
وأعاد لي الثقة في الحياة ، والأمل في المستقبل ، وأضاء
العالم في وجهي ، تطلقين عليه اسم النزوة العاطفية
العابرة ؟! .. أي ذنب اقترفته ، لتحطمي قلبي على
هذا النحو ؟ .. أهو أنتي أحبيتك بكل صدق وإخلاص
وتصورت أنتي سأجد معك الحب الحقيقي ..

أعسها كل ذلك الحزن المرتسم في ملامحه ،
ووددت لو أنها تخلت عن قرارها ، وهتفت تعترف بأنها
كاذبة ، وبأنها تبادله نفس الحب والإخلاص ، ولكن

***** ٣١ *****

الجزء الراض في أعماقها راح يقاوم في إصرار ، ويحبها
على الاستمرار ، وعدم الاستسلام ، فقالت :

- إنك شاب في مستقبل العمر يا (عصام) ،
وستلتقي بعشرات ممن هن في مثل عمرك ، أما أنا فعلى
مشارف خريف العمر ، وأكبرك بخمسة عشر عاماً
كاملة ، ثم أنتى لست امرأة سوية ، بل معقدة ، أحمل
تجربة زواج قاسية ، ستظل آثارها محفورة على قلبي
مدى الحياة ، فلماذا تربط حياتك بامرأة لن يمكنها
إسعادك أبداً ؟ .. لماذا تصرّ على الشقاء ؟ .. كلاً
يا (عصام) .. تراجع .. إننا لن نلتقي بعد اليوم أبداً .

أقلت عبارتها ، وكأنها تلتقي بيان انتحارها ، على
حين قال هو في رجاء :

- لا اعتبار لكل ذلك عندي يا (هيام) ، فحبك
يملاً عروقي ، وكل الاعتبارات الأخرى تسقط أمام
ذلك .. إن الشقاء الحقيقي في ابتعادى عنك يا (هيام) ،
فهذا هو ما أعجز عن احتماله .

***** ٣٢ *****

أشاحت بوجهها ، حتى لا تضعف أمام رجائه ،
وهي تقول :

- ينبغي أن نفرق يا (عصام) .. ارحل عن
(القيوم) ، أو أرحل أنا .. ستألم بعض الوقت ،
ولكنك ستدرك فيما بعد أنه كان الاختيار الأمثل .
اعتدل ، وحاول أن يتجلد ، وهو يقول :

- أهذا هو قرارك الأخير ؟

- نعم ..

- سأرحل إذن ، مادمت ترغبين في ذلك ،
سأغادر (مصر) كلها بعد بضعة أيام .

تجمّدت ، كما لو كانت قد تحولت إلى تمثال من
الشمع ، وهو يغادر المكان ، وقد نجحت في تنفيذ
قرارها ، وفي أن تبدو قوية متماسكة ، ولكنها تشعر
الآن برغبة قوية في أن ترتمي تحت ساقيه ، وتتوسّل
إليه أن يعود ، فهي تحبه ، وحبا له أقوى مما تصوّرت ..
من كل الحصون والقلاع ، التي أحاطت بها قلبها ..

***** ٣٣ *****

(٣ - وداعاً يا حبيبي - زهور)

ولكن كلاً .. فلتقاوم كل سهام الحب ، ولتحتمل
كل الآلام والشقاء ..

وراح الشاي ينسكب على الموقد ، وتصاعدت
أبخرته ، وهي لا تشعر بشيء ..
لقد كانت في عالم آخر ..
عالم اليأس ..



٤ - حكم القدر ..

بدا كل شيء كثيباً قاتماً في عيني (هيام) ، حينما
استيقظت في الصباح التالي ، فالأيام القادمة كانت
تحمل لها عذاب الفراق .. فراقها عن (عصام) ، الذي
عاقبها به ملاك الحب ؛ لأنها طردته من حياتها وقلبيها
يوماً .. وقد تحتمل هي عذابها ، ولكن ما يؤلمها هو
ما سببته لـ (عصام) من عذاب وشقاء ، وكما تمتت
لو أنه هو هجرها ، أو كرهها ، بل ليته يلتقي بإنسانة
أخرى تناسبه ، بدلا من أن يحمل في أعماقه كل ذلك
الحزن ، الذي قرأته في عينيه أمس ..

وعندما غادرت فراشها ، وهبطت إلى الردهة ،
في الطابق الأرضي ، فوجئت بالحاج (حسن) يجالس
خالها ، والحزن يملأ ملامحه ، حتى ليبدو وكأنما زاد
عمره عشر سنوات ، منذ فارقه أمس ، ولم يكده
يلمحها تقترب ، حتى هتف بها باكياً :

- (هيام) .. ساعديني يا بنتي .. أشفق على
جدك العجوز .

سألته في قلق :

— ماذا حدث يا جدى ؟

— (عصام) .. إنه يريد العودة إلى (أمريكا) ..
يريد أن يهجرني مرة أخرى .. لست أدري ماذا دهاه
بعد انصرافكما أمس ؟ .. كنا قد اتفقنا على أن يقيم
معى ، هو ومن يتزوجها ، ثم أتنازل له عن كل شيء ،
ولقد بدا كارهاً لفكرة السفر ، موافقاً على منطقتى
تماماً ، وفجأة انقلب كل شيء ، وعادته هى الهجرة
بغته أمس .

غمغم خالها في أسف :

— لقد حاولت إثناؤه عن ذلك ، ولكنه بدا
شديد الإصرار ، على نحو عجيب .

تمتمت هى في لهجة حزينة :

— ولماذا نحاول منعه ، مادامت هذه هى رغبته .

هتف الجد في انفعال :

— رغبته ؟! .. ألا تدرकिन ما يعنيه بقاء (عصام)

بالنسبة لى .. إنه ينسينى لوعتى لفقد ولدى .. ولو رحل

***** ٣٦ *****

فسأمت :.. هل تفهمين ؟ .. سأمت .

ثم أجهش ببيكاء حار ، فأسرعت إليه ، وألقى هو
برأسه فوق كتفها ، كما لو كان طفلاً صغيراً ،
وأرادت هى أن تخبره أنها أشد منه حزناً ولوعة ،
ولكنها تعلم أن ذهاب (عصام) هو الحل الأمثل ، حتى
لا يقعان في جيروت حب عاصف ، لا يخضع لمنطق
أو عقل أو قواعد ، ويرفضه الجميع ، حتى لا يشقى
به سواهما ، ولكن العجوز أضاف وهو ينتحب :

— ساعدينا على إقناعه يا (هيام) .. إننا نعلم كم

يحبك ويحترمك ، ويقدر رأيك .. إنه يجد فيك حنان

الأم ، التى حُرِم منها .. حاولى إقناعه .. أرجوك .

دوّت في عقلها العبارة الأخيرة : « يجد فيك حنان

الأم ، التى حُرِم منها » ..

إذن فهذا ما يمكن للآخرين أن يتخيلوه ، من

علاقته به ..

هذه هى العلاقة المنطقية الوحيدة ، بين امرأة في

خريف العمر ، وشاب في ريعان الصبا .

***** ٣٧ *****

وهم على حق ..

قد يراها هو الآن أشبه بالشابة الجميلة ، التي تركها
قبل سفره ، ولكنه ، وبعد عدة أعوام ، سيدرك أن
قطار شبابها على وشك الرحيل ..

وفي هدوء ربّنت على رأس الجذ ، قائلة :

— سأحاول يا جدى .. سأحاول من أجلك ..

مضت فترة من الصمت ، بعد أن طرقت باب
حجرته ، لتسمعه يقول فى وهن :

— ادخل .

دلفت إلى حجرته ، وهو منهمك فى إعداد حقائبه
والذبول يملأ وجهه ، ويسيطر على عينيه المرهقتين ،
مؤكداً أنه لم يذق طعم النوم ، منذ ليلة أمس ، فقالت
فى وهن مماثل :

— لم أتصور أنك ستفعل ما طلبته منك بهذه
السرعة .

لم يلتفت إليها ، وهو يقول :

***** ٣٨ *****

— ولِمَ الانتظار ؟ .. من الأفضل أن يتم كل
شئ فى سرعة ، لأجنب نفسى مشقة الانتظار .

— جذك يتألم لرحيلك .

— ربما أمكننى أن أقنعه يوماً بالعيش معى فى

(أمريكا) .

أسندت رأسها إلى جدار الحجرة ، وأسبلت

جفניה ، وهى تغغم فى ألم :

— ليتك تدرك أنتى أفعل ذلك من أجلك .

— لست أفهم سوى شئ واحد ، وهو أنك

لو عرفت الحب ، كما عرفته أنا ، ما أمكنك أن

تطالبينى بالرحيل ، مهما كانت الاعتبارات .

— الحب لا يعرف الأنانية ، ومن الأنانية أن

ترتبط بإنسانة مثلى .

— بل من الأنانية أن تحرمينى منك ، بعد أن

أحييتك كل هذا الحب .

سالت من عينها دموع المرارة ، وهى تقول :

— أنا أيضاً أحبك .. أحبك بكل ذرة فى كيانى ..

***** ٣٩ *****

عقلي ولساني يطالبانك بالرحيل ، وقلبي يتوسل إليك
أن تبقى .

ارتجفت يده ، وانتفض جسده كله ، والتفت
إليها بحركة حادة ، وقد هز ذلك الاعتراف مشاعره ،
ثم اندفع نحوها ، وراح يقبل يديها في حرارة وهو
يهتف :

— أحقاً ؟ .. أحقاً تحبينني كل هذا الحب ؟
سال اللمع على وجنتها ، وهي تهز رأسها إيجاباً ،
مغمضة العينين ، فاستطرد في حرارة :

— لا تؤلميني على هذا النحو مرة أخرى أبداً ،
فأنت لا تعرفين مدى العذاب الذي عانيته ، لمجرد تخيل
رحيلي عنك .. لا يمكنك أن تتصورى كيف أمضيت
ليلتى ، وأنا أعلم أنني لن أراك بعد الآن .

مسحت على شعره في حنان ، مغمضة :
— كل ما أطلبه منك هو أن تمنح حبنا فرصة ..
امنحه مهلة من الوقت ، نتظاهر خلالها أننا مجرد
صديقين مخلصين .

***** ٤٠ *****

ارتسم الارتياح على وجهه ، وهو يقول :
— لست أفهم .. كيف تطالبيني بأن نكون مجرد
صديقين ، وقد اعترف كل منا بحبه للآخر منذ
لحظات .

قالت في رجاء :
— هذا ما أقرته قلوبنا ، وعلينا أن نمنح عقلينا
الفرصة ، للتصديق على ذلك القرار .. يجب أن نتأكد
من أن حبنا ليس مجرد نزوة ، أو اندفاع .. بل حب
حقيقي ، لا بد له من أن يستمر ويبقى ، وهذا يحتاج إلى
بعض الوقت .

ابتسم ، وهو يمسح دموعه ، قائلاً :
— أعرف كيف تفكرين .. إنك تتصورينني مجرد
شاب مندفع ، وراء عاطفة عابرة ، لامرأة ناضجة ،
تحاول أن تزن الحب بعقلها وقلبيها في آن واحد ..
أتخشين أن أراجع عن هذا الحب يوماً ؟ .. كم أنت
واهمة !

قالت في مراة :
***** ٤١ *****

***** ٤١ *****

— لا تنس أن تلك المرأة ، التي تتحدث عنها ،
انسأقت يوماً خلف قلبها وحده ، فعاشت تجربة أليمة ،
علمتها ألا تثق في الأيام والكلمات في سهولة .

قبل كفها ، قائلاً :

— ليتك تنسين تلك التجربة القاسية ، وتذكرين
فقط حبي وإخلاصي .

قالت في لهجة أقرب إلى الرجاء :

— ليتك أنت توافق على ما طلبته منك ، وتمنح
حبنا بعض الوقت ، ليقتنع به عقلانا .
أجابها في لهجة جادة :

— أعدك أن أكون رزيناً في حبك ، وأن أكتفي
بصداقتك بعض الوقت ، حتى أثبت لك أن حبي ليس
مجرد نزوة ، وحتى تتأكد من صدقي وإخلاصي لهذا
الحب ، وأنتى أرغب حقاً في أن تصبحي زوجتي .

خيّل إليه أنه قد نطق بكلمة مرعبة ؛ إذ ارتسم
الفرع في وجهها ، وهي تهتف :

***** ٤٢ *****

— لا .. إذا أردت أن يستمر حبنا ، فحذار أن
تحدثني عن الزواج .

— ولكنه النهاية الطبيعية لأي حب حقيقي شريف .

— أنت لا تعلم عما تتحدث .. لست أحب أن
أسمعك تذكر تلك الكلمة .. أرجوك .
هدأ من روعها ، مغمغماً :

— حسناً .. حسناً .. إننى أقدر مخاوفك .. فلننفذ
أولاً ما اتفقنا عليه ، ولنترك للقدر اتخاذ القرار ، وأنا
واثق من أنه سيكون رحيماً رءوفاً بحبنا ومشاعرنا .
أجابته في خفوت :

— نعم .. اترك القرار للقدر ..
وصمتت وهلة ، ثم استطردت في حزن :
— ولا تثق كثيراً في أحكامه ..

***** ٤٣ *****

٥ - صاحبك دائماً ..

ظلاً يلتقيان بصورة شبه يومية ، ويقضيان معاً الساعات الطوال .. طوال في عمر الزمن ، وقصار في عمر حبهما .. واستمرت علاقتهما ، التي تحمل ظاهراً الصداقة ، وباطن الحب ، واحترام (عصام) وعده لها ، فلم يشر يوماً إلى عواطفه المشبوبة ، أو هيامه بها ، بل حرص كل الحرص على مشاركتها اهتماماتها وأفكارها ، آملاً أن يكون هذا هو السبيل الصحيح لنيل ثقتها ، وتأكيده كونه ناضجاً بأفكاره ومشاعره ، وأنها تستطيع أن تطمئن إليه ، وتقنع به زوجاً في المستقبل ، ولقد أدمننا تلك اللقاءات اليومية ، التي تجدد السعادة في قلوبهما ، حتى باتا لا يفترقان إلا مع مغيب الشمس ، انتظاراً لشرورها في يوم تال ..

واستمرت تلك اللقاءات شهرين كاملين ، صار خلالها كل مكان يجمعهما أشبه بجنة خاصة لحبهما ، و (عصام) يترقب دوماً ذلك اليوم ، الذي يفصح فيه

عن حقيقة مشاعره ، على حين بقي في نفس (هيام) ذلك الخوف المجهول ، الذي يطارد ماضيها ، ويتربص بمستقبلها ، وهي تعجز عن طرده من أعماقها ، على الرغم من هزيمة قلبها ، وإصرارها على استسلام عقلها أيضاً ، لتتيقن من صدق مشاعرهما ، ونضج حبهما ، وهي تعلم أن خوفها ، وعدم ثقتها بالمستقبل ، هما في الوقت ذاته سر استسلامها للحب ، وهزيمتها أمامه ، وهي هزيمة تتوق إليها كل القلوب النابضة ..

ومع الأيام ، أخذت (هيام) تستسلم رويداً رويداً لتلك الهزيمة الممتعة ، وبدأت تسمح لـ (عصام) بإلقاء بعض عبارات الحب على مسامعها ، وتنثني لها ، كما لو كانت مراة صغيرة ، تذوق الحب لأول مرة .. وتلاشت أمام سعادتها كل مخاوفها ..

حتى فارق العمر بينهما ذاب وتلاشى ، ولم تعد هي أو هو يشعران به ..

أما خالها والحاج (حسن) ، فلم تبد لها تلك العلاقة بأكثر من علاقة أخت بأخيها ، وصداقة تمتد جذورها

إلى الماضي ، وتعززها رابطة قربي وصداقة بين
الأسرتين ، وسعد الجد لأن تلك الصداقة قد أقنعت
حفيده بالبقاء ، وابتهج الحال ؛ لأنها قد أعادت إلى
(هيام) إشراقها ، وأقبلها على الحياة ..

أما أهالي (الفيوم) ، فقد صاروا يثرثرون حول
علاقة (عصام) و (هيام) ، وعلى الرغم من أن تاريخ
(هيام) لديهم ، كان يشف عن الجدية والاستقامة ،
إلا أن السعادة التي تملأ ملامحها ، وهي بصحبة (عصام)
وتورّد وجنتيها ، في حديثها معه ، جعلوا الجميع يجزمون
بأنهما ليسا صديقين .. وإنما عاشقين ..

و ذات يوم ، وهما يجوّلان معاً ، وسط الطبيعة
الخلّابة ، قالت (هيام) لـ (عصام) :

— ألم يبلغك جدى (حسن) بالمفاجأة السعيدة ؟

تطلّع إليها بابتسامة عذبة ، مغمغماً :

— أية مفاجأة ؟

هتفت في مرح :

— ستعود (وفاء) ابنة خالي بعد يومين .. لقد

***** {٦} *****

أبرقت إلينا بذلك ، ولا يمكنك أن تتصوّر سعادة خالي.
اضطرب (عصام) ، حينما سمع منها ذلك ،
وقفزت به الذكريات فجأة إلى الوراء .. إلى (وفاء) ،
صديقة الطفولة ، وحب المراهقة .. إلى أوقاته السعيدة
معها .. لقد كان يسرق الحلوى من حقيبة (هيام)
ليقدّمها لها .. تذكر كيف أخبرته (وفاء) يوماً ،
وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وهي تصغره بعامين ،
أن القواقع تحتفظ دوماً بالأسرار ، وتحقق الأمنى ،
فأسرع يحضر قوقعة ، بثّها كل منهما حبه وعشقه للآخر
ثم دفناها إلى جوار شجرة كبيرة في الحديقة ، وهما
يتصوران أنها ستحفظ حبهما إلى الأبد ، وتحقق أمنيات
مستقبلهما .. كم كانت مشاعرهما بريئة ساذجة ، ولكن ..
أبقى شيء من هذا الحب في أعماقه .. كلا .. إنه لا يعتقد
ذلك ، فحبه لـ (هيام) صار يملأ كيانه ، ويطغى على
كل ذكريات ماضيه ..

قطعت (هيام) أفكاره ، وهي تسأله :

— فيم تفكر ؟

***** {٧} *****

— لا شيء .
— أراهنك أنها (وفاء) ، فلقد كنتما صديقين حميمين منذ الطفولة .

— أظن الأمر سيختلف الآن .

— لماذا ؟

— لأننا لم نعد طفلين ، ولا ريب أن مشاعرنا الآن تختلف ، ولست أظن خالك سيسمح بقيام صداقة بين شاب وشابة مثلنا .

— ولكنه لا يمانع في صداقتنا .. أعني أنا وأنت .
— هذا لأنه يعتبرك بمثابة ..

بتر عبارته بغته ، وقد أدرك خطأ ما كان سينطق به ، إلا أن (هيام) أكملتها في حزن :

— بمثابة أخت كبرى لك .. أو أم .. من يدري ؟
ألم تقرأ الدهشة والاستنكار في عينيه ، حينما نظقت اسمي أمامه مجرداً ، دون أن تسبقه بلقب (أبله) كما في الماضي ؟ .. أراهنك أن أقصى ما جال بخاطره هو أن

***** ٤٨ *****

هذا نتاج اندماجك في المجتمع الأمريكي ، حيث يهملون تلك الاعتبارات .

نغمم محاولا التخفيف من حساسيتها :

— أنت شديدة الحساسية ، لقد أخبرتك من قبل أن الحب لا يعترف بأية فوارق ، سواء أكانت اجتماعية أم مادية ، أو حتى زمنية .. لقد خلق ليحطم كل الحواجز .

شبكت أصابعها بأصابعه ، وهي تقول :

— العوامل الزمنية هي أقواها وأكثرها ممانعة .
ضم كفها إلى قلبه ، وهو يقول في إخلاص :

— سيهزمها حبنا يا (هيام) .

— ها نحن ذا نعود للتحدث كالمحبين ، على الرغم من اتفاقنا .

— ولم نواصل خداعنا لأنفسنا يا (هيام) ..
لقد اعترف كل منا للآخر بحبه منذ البداية ، ولقد آن الأوان لنزع تلك الأقنعة الزائفة ، ونعترف بمشاعرنا .

***** ٤٩ *****

عجزت هذه المرة عن المقاومة ، فتركت رأسها
تسترخي على كتفه ، وهي تقول :
- إنك لا تعلم كم أحبك ، وكم تخيفني فكرة فراقك
لي يوماً .. لقد أصبحت كل حياتي ، وسأعترف بحبي
لك ، على الرغم من خوفي من نفسي ، ومن نظرة
المجتمع ، حينما يفاجأ بحب امرأة في خريف العمر مثلي ،
لشباب في مقتبل العمر مثلك .

قبّل رأسها ، قائلاً :

- اطرحي عنك كل هذه المخاوف يا حبيبتي ..
لن نفرّق بيننا أية قوة في الأرض .

عادا إلى المنزل ، وقد تفجّرت كل عواطفهما
المشوبة ، وفي الطريق سأله (هيام) :

- أستبأني للترحيب بـ (وفاء) بعد غد ؟

- بالطبع .. أستقضي هنا إجازة قصيرة ؟

- بل ستبقى على نحو دائم ، فلقد أنهت دراستها ،
وتزوّجت أمها بآخر ، ولم يعد هناك ما يربطها بالبقاء
في (دمشق) .

***** ٥ *****

ثم سأله فجأة في لهفة :

- أتسعدك عودتها ؟

عاوده الاضطراب ، وهو يتنحّح مغمغماً :

- بالطبع .. إنها صديقة قديمة و ..

قاطعته في سعادة :

- إنني أحبها جداً ، ثم إن فرحة خالي بعودتها

تسعدني ، فلن يمكنك أن تتصوّر مدى سعادته بعودتها ..

وعلى الرغم من أن (عصام) كان يعيش أجمل أيام

حياته وأسعدّها ، بعد أن رفعت (هيام) كل الحواجز

عن حبهما ، ومهدت الطريق إليه بالسعادة والآمال ،

إلا أن ورود اسم (وفاء) في حديثهما أورثه قلقاً خفياً

لم يدر كنهه ، ف (وفاء) تذكره بعواطفه البريئة الأولى

ونبض قلبه الأوّل ، و .. ولكن .. أليس حبه لـ (هيام)

صادقاً ؟ .. بلى إنه كذلك ، ولكن ..

تملكه الاضطراب ، حينما توقفت أفكاره عند

تلك الكلمة ..

***** ٥١ *****

ولكن ماذا ؟

إنه ومنذ البداية يتمنى أن تبادله (هيام) حبه ،
كما يتمنى أى محب ، إلا أنه لم يفكر أبداً ، على نحو
جدى ، فى ظروفها النفسية المعقدة ، ولم يتعاطف مع
تجربتها السابقة الأليمة ، فعلى الرغم من مرارتها ، وهى
تتحدث عنها ، إلا أنه لا يذكر إنصاته لها على نحو جيد
فقد كان كل ما يشغله هو أن تبادله الحب ، الذى
يشعر به نحوها .. وهذه أنانية ..

ولكن .. ألا يحمل الحب فى طبيّاته شيئاً من الأنانية ؟

إن الحب الأفلاطونى ، القائم على التضحية وإنكار
الذات وهّم لا وجود له إلا فى خيال الأدباء والشعراء
أما حبه لها فحب إنسانى ، منطقى ، يقوم على تبادل
المشاعر ..

ولكن أى نوع من المشاعر ؟ ..

مشاعر الحب والهيام فحسب ، أم حتى الآلام
والشقاء ؟ ..

فجأة نفض عنه كل تلك الأحاسيس والتساؤلات
وألقاها خلف ظهره ، وهو يشعر بمبالغته فى مشاعره .
واقترقا ..
اقترقا على موعد باللقاء ..



٦ - صراع الحب ..

استقبلته (هيام) على باب حديقة فيلا خالها ،
وهي تقول في قلق :

— لماذا تأخرت ؟ .. إن جدك هنا منذ زمن ،
ولقد قال إنك سافرت إلى (القاهرة) ، ولقد أقلقني
عليك كثيراً .

— لقد تعطلت سيارتي بعض الوقت .. هل
وصلت (وفاء) ؟

— نعم .. إنها تجلس في الناحية الأخرى من
الحديقة ، مع جدك وخالي ، وبالمناسبة ، ينبغي أن
تحرص أشد الحرص على إخفاء مشاعرنا أمامهم ، فلقد
بدأ خالي يتساءل عن كثرة خروجنا معاً .. صحيح أنه
لا يشك في وجود عاطفة تجمعنا ، إلا أنه سرعان ما يشعر
بذلك ، كما أن (وفاء) ستدرك هذا بسرعة ؛ بحكم
صداقتها لك ، وغريزتها كأنثى .

— ولم كل هذه التعقيدات والخاوف ؟ لم لا نعلن
حبنا على الملأ ؟

***** ٥٤ *****

— هل جنت ؟ .. وكيف نواجههم بذلك ؟

— كما يواجه أي حبيبين أسرتيهما بجهما .

— لسنا كأى حبيبين .

— أستعودين لتلك النعمة مرة أخرى ؟ .. الحب
ليس عاراً يا (هيام) ، ولا ينبغي أن نخفيه ، ومن
الضروري أن تنتزعي من رأسك تلك الأفكار المعقدة ..
إننا سنواجه الاستنكار والاعتراض في البداية ، وعلينا
أن نصمد ، ونواجه كل ذلك ، حتى يرضخوا لحبنا ،
ولرغبتنا في الزواج .

مطت شفيتها ، وهي تقول في مرارة :

— الزواج ؟ ! .. أتعلم فيما كانا يتحدثان هذا
الصباح ؟ .. كانا يقولان إنك خير زوج لـ (وفاء) ،
ولأنها خير زوجة لك .

اضطرب وتلعثم ، وهو يقول :

— ربما يرجعان ذلك إلى صداقتي القديمة لها ،
ولكنها لا تكفي لذلك بالطبع .

***** ٥٥ *****

— إنه تفكير طبيعي لها ، خاصة وأنكما شابان
متقاربان في العمر والطبائع .

ثم تنهدت في مرارة ، مستطردة :

— وعلى أية حال ، لم يحن الوقت لمصارحتهم
بحقيقة عواطفنا بعد .. يكفي أن نحفظ بها لأنفسنا ، في
هذه المرحلة على الأقل .

— ومتى تنتهى هذه المرحلة في رأيك ؟

— حينما تواتبنى الشجاعة الكافية لمواجهتهم بحبنا ،
وقبول عرضك للزواج منى .

— كما تشائين ، وإن كنت أفضل أن نعلن حبنا ،
فهو أجمل من أن نخفيه .

— اصمت إذن ، فهما هم أولاء قادمون نحونا .

أرسل بصره إلى حيث أشارت ، ورأى خالها وهو
يقترُب بصحبة (وفاء) ، وتعلقت عيون (عصام)
بالبُتَّة ، وهو يهتف في أعماقه :

— يا إلهي !! .. لقد تغيرت كثيراً .. صارت
فاتنة ، باهرة الحسن ، بأكثر مما كنت أتوقع وأتصور ..

***** ٥٦ *****

إنها أجمل من صورتها كثيراً .. من كان يتصور أن
تصبح (وفاء) هكذا ؟ .. كلاً .. إنها دوماً جميلة ،
بشعرها الكستنائي ، وعينيها الخضراوين .. إنها بالنسبة
لى دوماً ملاك رومانسى حالم ، أنستى عيناه التدقيق
فى تكوينه ، ولكن ها هى ذى الآن .. فتاة ناضجة ،
مكتملة الأنوثة ، أضفت عليها سنوات النضج حسناً
وجمالاً وجاذبية .

قاطعتة صبيحة الخال ، وهو يقول فى مرح :

— ها هوذا (عصام) أخيراً .. صديق طفولتك ،
الذى تسألين عنه منذ حضورك .

صافحها (عصام) فى انبهار ، وهو يملأ عينيه
بجمرة الحجل ، التى صبغت وجهها ، وزادته فتنة ،
زقال :

— مرحباً بك يا (وفاء) .. كم تسعدنى عودتك .

أطلت من عينيها نظرة تجمع بين الشوق
والاضطراب ، وهى تقول :

— كيف حالك أنت يا (عصام) ؟

***** ٥٧ *****

شعر بكفها ترتعش في راحته ، ورأى في عينيها
نفس النظرة الرومانسية الحاملة ، وتنبه فجأة إلى أن
(هيام) تراقبهما في توتر وقلق ، فسحب يده من يد
(وفاء) ، وتلثم محاولا البحث عن كلمات مناسبة
لللقاء ، وقد أقلقه ذلك الإحساس المباغت ، الذي ملأ
نفسه ، حينما التقى بـ (وفاء) ، وتلك النظرة النافذة ،
التي حذجته بها (هيام) ، محاولة استشفاف ما يدور
بنفسه ، حتى أنقذ الحال الموقف ، دون أن يدري ،
وهو يقول :

— ماذا أصابكما ؟ .. إنكما تبدوان جامدين
كتمثالين .. أنسيما كيف كنما تملآن المنزل صخباً
وضجيجاً في الماضي ؟

ضحكت (وفاء) ، قائلة :

— أبى .. إننا لم تعد طفلين .

صمت الحال برهة ، تأملهما خلالها في اهتمام ، ثم

ابتسم مغمغماً :

— هذا صحيح .. لقد صار (عصام) شاباً وسيماً ،

***** ٥٨ *****

وصرت أنت فتاة رائعة .. إن مرآ كما يكمل سعادتي .
شعر (عصام) بغصة في حلقه ، حينما لمح (هيام) ،
وقد انزوت بعيداً ، وكأنما لم تجد لها مكاناً وسط فيض
العواطف هذا ، فتقدم نحوها ، وأمسك يدها ، وهو
يقول في مرح :

— لسنا وحدنا نكمل سعادتك يا عماء .. أنسيت
ابنتك الكبرى (هيام) .

أحاط الحال كتف (هيام) بذراعه ، وهو يقول :

— وكيف أنساها ؟ .. إنها تملأ عقلي وقلبي دوماً ..

هيا بنا نلحق بجذكما ، فهو يجري بعض التجارب — غير
المأمونة — في حديقة المنزل .

وعلى الرغم من البهجة والمرح ، اللذين أغرقا
المكان ، لم تنجح (هيام) أبداً في محو ذلك القلق ، الذي
ملأ نفسها ، لحظة المصافحة ..

مصافحة (عصام) و (وفاء) ..

***** ٥٩ *****

أدرك (عصام) ، في الأيام التالية ، أن (وفاء) ما زالت تحتفظ له بمشاعر الحب القديم ، وأن السنوات التي باعدت بينهما لم تنتزع منها هذا الحب ، ولقد أسعده هذا في أعماقه ، بل دفعه إلى مبادلتها بعضاً من مشاعرها ، إلا أن الصراع في أعماقه صار عنيفاً ، بعد أن احتلت (هيام) جانباً من قلبه ، بعد أن طاردها بحبه ، وحاصرها بعواطفه ، حتى استسلمت له ..

وكثيراً ما تساءل : أيمن لرجل أن يحب اثنتين ، بنفس القوة ؟ ..

كان هذا السؤال يزعجه كثيراً ، فهو يلتزم مع (هيام) بجانب أخلاقي ، يدفعه إلى الإخلاص لها دوماً ، وتجنّبها الشعور بالمنافسة مع فتاة أصغر عمراً ، وأكثر جمالا مثل (وفاء) ، وفي نفس الوقت كان يعجز عن انتزاع (وفاء) من تفكيره ، وعن مقاومة انجذابه الشديد إليها ، ورغبته العارمة في بعث حبهما من جديد ، وكان يحاول إقناع نفسه بأن هذا ليس سوى نوع من

***** ٦٠ *****

الانجذاب لحنين الماضي ، وأنه لا يحب سوى (هيام) ، على الرغم من محاولات (وفاء) المستمرة للتقرب إليه ، وإثارة مشاعره القديمة نحوها ، وهو يعاملها بنوع من التحفظ ، ويظهر لها جانب الصداقة والتقدير ، دون أن يشير بحرف واحد إلى ماضيهما ، يدفعه إلى ذلك أمران ، أولهما : إحساسه بأن حبه المضطرب لها ، ينبغي ألا يتجاوز حدود الذكرى ، وأنه لا يستقيم أبداً مع مشاعره نحو (هيام) ، وثانيهما : خوفه من أن تدرك (هيام) ، بغريزتها الأنثوية ، حقيقة مشاعره نحو (وفاء) ، فتعود إليها عقدها ومخاوفها ..

ولكن هذا كان يفضيه ..

كان الإحباط ، الذي يملأ وجه (وفاء) ، كلما استقبل عواطفها ببرود ، يورثه حزناً شديداً ، يحاول القضاء عليه بالمبالغة في منح عواطفه لـ (هيام) ، على نحو يبدو له شديد الافتعال ..

وأيقنت (وفاء) ، مع مرور الأيام ، أن حب

***** ٦١ *****

(عصام) القديم لها ، لم يعد له وجود ، وعلى الرغم من كل محاولات التخفي والتظاهر ، لم يكن من الصعب أن تدرك (وفاء) ، أن التي احتلت مكانها في قلب (عصام) هي ابنة عمها ، التي كانت تعتبرها دوماً الأخت الكبرى الحنون ، فكما يقولون : « الصب تفضحه عيونه » ..

ولقد تساءلت (وفاء) دوماً : كيف وقع (عصام) في حب (هيام) ، التي تكبرها بتسعة عشر عاماً ، والتي كانا يعتبرانها بمثابة الأم ، وهما بعد صغيران ؟ ..

كيف أمكنها أن تنتزع مكانها في قلبه ؟ ..

ولكن هذا قدرها .. وما دام (عصام) يحب (هيام) ، فينبغي أن تفسح لها الطريق ..

وفي البداية كانت ترمقهما بنظرات مستنكرة ، متهمة ، وكانت نظراتها تحاصرهما ، وتسبب لهما الكثير من القلق والاضطراب ، ثم هدأت مشاعرها مع استسلامها اليأس لواقع الأمور ، وتلاشت نظرة الاتهام

***** ٦٢ *****

من عينيها ، وحاولت أن تروض نفسها على التعايش مع (عصام) بصفة جديدة ، هي صفة صديق الطفولة فحسب ، كما أبقت على صداقتها واحترامها لابنة عمها ، وإن عجزت عن ترويض نفسها على حبها كما في الماضي .. وعلى الرغم من كل محاولاتها ، ظل قلب (وفاء) يحمل حزناً ..

حزناً عميقاً ..



***** ٦٢ *****

٧ - سعادة مقيدة ..

اعتاد (عصام) أن يتعامل مع (وفاء) و (هيام) على نحو شبه رسمى ، بعد أن اضطره وجود (وفاء) إلى تباعد لقاءاته مع (هيام) ، وكانت لقاءاتهما تتم غالباً فى مكان خلوى ، بعيداً عن الأعين ، وفى ذلك اليوم ، ألتقت (هيام) رأسها على كتفه فى اشتياق ، هاتفة :

- كم أوحشتنى يا (عصام) .. أسبوع كامل لم نلتق فيه .. كيف طاوَعك قلبك على هذا ؟

مسح على شعرها ، مغمغماً فى حنان :

- أنت أيضاً أوحشتنى كثيراً .. كنت أقضى

بعض الأعمال فى (القاهرة) ، وعدت منذ يومين .

- يومان !! .. أحرمتنى رؤيتك يومين كاملين ،

وأنت هنا .

وتشبثت بذراعه ، وكأنها تخشى أن تفقده ، وهى

تستطرد :

***** ٦٤ *****

- لقد كنت متلهفة لرؤيتك .. لم تأت إلى منزلنا فور عودتك ؟

- لأننى سئمت تمثيل هذا الدور .

- أى دور ؟

- دور صديق العائلة ، الذى يأتى للتحديث فى مواضيع شتى ، ويضطر لتوزيع ابتساماته ومجاملاته على الجميع .. إلى متى سنخفى عنهم حقيقة حبنا ، ونظل ندخر مشاعرنا وعواطفنا للقاءات سخيفة ، كما لو كنا نرتكب جريمة ؟ .. إننى أتمنى أحياناً أن أتجاهل وعدى لك ، وأصرخ وسطهم أنتى أحبك ، وأريد الزواج منك .

أسعدتها عواطفه المشبوبة ، ولكن سعادتها تقيدت بمخاوفها وقلقها ، فغمغمت فى رجاء :

- إننى أقدر متاعبك يا حبيبى ، وكل ما أرجوه منك هو مزيد من الصبر .. ينبغى أن نختار الوقت المناسب لنصرح لهم بحبنا ، ونقنعهم به .

- ولكن هذا الوقت المناسب لن يأتى أبداً ..

***** ٦٥ *****

(ه - وداعاً يا حبيبى - زهور)

ما الذى يدعوننا إلى الانتظار ؟ .. ولماذا نصرّ على
محاصرة أنفسنا بكل القلق والاضطراب ، خشية أن
يكشفوا أمرنا ، ما دام ما نخفيه اليوم منعلنه غداً .

لم تجد ما تقوله ، وهى تعترف لنفسها بأنه على
حق ، وبأنها تتخذ من ذلك التأجيل حجة ؛ لمداراة
خوفها من إعلان ذلك الحب رسمياً ، ومن أن تأتى لحظة
يواجهها فيها الآخرون بكل الحجج والمبررات المنطقية ،
التي تجعل هذا الحب مستحيلاً ، والتي تهم قبولها الزواج
من شاب يصغرها بخمسة عشر عاماً بالأناثية ..

إنها تخشى أن تضعف أمام حججهم واتهاماتهم ،
تحت دعوى المثالية وإنكار الذات ، فتتخلى عن حبيبها
لأخرى ، أكثر ملاءمة له ، كما يفرض عليها الحب ..

إنها تعلم أنه لن يمكنها القيام بمثل هذه التضحية ،
وأنها لن تحتمل فراقه أبداً ، فعلى الرغم من أنها قد
حاولت إبعاده عنها فى البداية ، بدعوى التعقل والمنطقية ،
إلا أن حبه صار يجرى فى عروقها مجرى الدم ، ومن

***** ٦٦ *****

المستحيل أن تتخلى عنه ، ولتذهب كل دواعى التعقل
والمثاليات إلى الجحيم ..

إنها تفضل أن يبقى هذا الوضع ، وأن يكتفيا بلقاء
بضع ساعات ، يلتهمان فيها الحب والأشواق التهاماً ،
على أن يعلنوا حبهما ، فيقضيها عمريهما فى محاربة
الآخرين له ، وفى أنهار القلق والتوتر والصراع ..
أما (عصام) ، فقد كان رأيه يختلف ..

كان يصر على إعلان حبهما ، ليس خوفاً من
التظاهر وقلق الانتظار كما يدعى ، وإنما حسماً لذلك
الصراع الملتب في أعماقه ، منذ عودة (وفاء) ، وكأنما
يحاول أن يثبت لنفسه ، قبل الآخرين ، أنه لن يخون حبه
لـ (هيام) ، بسبب عاطفته القديمة نحو (وفاء) ، والتي
يناضل لمحاربتها يوماً ، ثم يستسلم لها فى اليوم التالى ..
أراد أن يبرئ نفسه من تهمة خيانة الحب الذى
سعى إليه ، وأوقد شعلته ، وجاهد ليلهبه ويشعله ..
ولكن أيكفى إعلان حبه لـ (هيام) ، لتتطفى
جذوة ذلك الصراع ؟ ..

***** ٦٧ *****

هذا هو السؤال ، الذى يخشى معرفة جوابه ..
وقطعت (هيام) حبل الأفكار ، وهى تقول
فى استعطاف :

— حبيبي .. دعنا لا نضيع الساعات القلائل ،
التي نلتقى خلالها ، فى مشاكل وهموم حينا .. دعنا نلهم
فيها بسعادة الحب دون عذابه .

قال فى حنان حقيقى ، وهو يمسح على شعرها :

— هروبنا المستمر ، من مواجهة هذه المخاوف ،
لن يبعدها عنا ، بل سيجعلها تسيطر على حياتنا وحينا ،
وتعصف به يوماً .

أطلت من عينيها نظرة فزعة ، وهى تضع أصابعها
على فمه ، لتمنعه من الكلام ، هاتفة :

— لا تقل ذلك .. إن حينا سيبقى .. لن نسمح لأى
شئ بأن يعصف به .. أليس كذلك ؟ .. أليس كذلك
يا (عصام) ؟ .. لأننى لن أحتمل الحياة بدونك أبداً .

قبّل رأسها ، محاولاً تهدئة مخاوفها ، وهو يقول :

— لن أفارقك أبداً يا (هيام) ، فأنا أيضاً لا أتصور
الحياة بدونك .
ولكن شيئاً ما فى أعماقه ، كان يهز ثقته فى صدق
عبارته .. يهزه فى شدة ..

دلف (عصام) إلى حجرة والد (وفاء) ، الذى
يرقد فى فراش المرض ، ولم يكد الوالد يراه ، حتى
تهللت أساريره ، وهو يهتف به :

— تعال يا (عصام) .

اقترب (عصام) ، وجلس إلى جواره فى توتر
واضطراب ، مغمغماً :

— حمداً لله على سلامتك يا عماء .. لقد أخبرنى
الطبيب أن صحتك فى تحسن .

— نحمد الله يا ولدى .. لقد أرهقت جدك معى
كثيراً ، على الرغم من عمره الكبير .

— إنه يحبك كثيراً يا عماء ، وهو يدعو لك فى
كل صلاة بالشفاء .

— إننا أسرة واحدة يا ولدى .. أليس كذلك ؟

— بالطبع يا عماء .

— ما رأيك في ذلك الطبيب ، الذى يشرف على

علاجى ؟

أدهش السؤال (عصام) ، إلا أنه أجاب فى هدوء :

— أتقصد الدكتور (رفيق) ؟ .. إنه رجل ممتاز ،

و (الفيوم) كلها تشيد به .

تهنئ الأب مغمغماً :

— من المؤسف أن هذا الرجل الممتاز سيتركنا

ويرحل .

— إلى أين ؟

— إلى (الإسكندرية) ، فسيفتح قريباً مستشفى

الخاص ، إلى جوار منزل عائلته .

— (الإسكندرية) ليست بعيدة على أية حال ،

وهو سيأتى لزيارتك بالتأكيد .

رمقه الحال بنظرة ثاقبة متفحصة ، وهو يقول :

— ليس هذا هو المؤسف .. ألا تعلم أنه كان

***** ٧٠ *****

يرغب فى الزواج من (هيام) ، وأنه قد عرض عليها
رغبته هذه أكثر من مرة ؟

لم يخف على الحال ذلك الاضطراب ، الذى اعترى

(عصام) لدى سماعه هذه العبارة ، فأردف فى هدوء :

— ومن المؤسف أنها رفضت عرضه هذا ، فلقد

عودتها على اتخاذ كل قراراتها بنفسها ، ولا يمكننى أن

أفرض عليها مثل هذا القرار ، ولكن الدكتور (رفيق)

هو الشخص المناسب لها تماماً ، فهو ناجح ، دمث

الخلق ، يكبرها بسبعة أعوام فقط ، فضلاً عن ثقافته

الواسعة ، ومميزاته الأخرى ، ألا تتفق معى فى أنه خير

زوج لها ؟

تساقطت حبات العرق على جبين (عصام) ، وهو

يغمغم فى تلغم :

— بالتأكيد .. المهم هو أن تحبه هى ، ولو أنها ..

قاطعه الحال فى هدوء :

— لقد مررت (هيام) بتجربة قاسية ، جعلت

مشاعرها مضطربة ، وعواطفها غير سوية على الإطلاق ،

***** ٧١ *****

مما يحجب عنها الكثير من الحقائق ، ويجعلنى لا أطمئن
إلى ما يصدره قلبها من أحكام .

وتطلع إلى (عصام) بنظرة ، بدت وكأنها تنفذ
إلى أعماقه ، وتسبر غوره ، وهو يستطرد :

— إنك بمثابة الأخ الصغير لها ، ولكنها تكن لك
الكثير من التقدير والاحترام ، وليتك تناقشها في هذا
الأمر ، وتردها إلى صوابها .

نغمم (عصام) وهو ينهض :

— سأحاول يا عمه .

ولكنه شعر أن الخال يفهم كل شيء ، وأنه يحاول
تذنيه إلى خطورة علاقتهما العاطفية ، على نحو مستتر
مهذب .. يريد أن يبلغه أنه يعرف كل أسرار حبهما
الخفى ، وأنه يحذره من الاستمرار في خطئ هذا الحب .
ودب الخوف في أعماق (عصام) .. إنه يطالب
بمواجهة الجميع بحبه لـ (هيام) ، ثم ها هو ذا يضطرب
ويرتبك ، لمجرد التلميح بذلك من الآخرين .. أين
ذهبت تلك القوة ، التى يستشعرها في أعماقه دوماً ،

***** ٧٢ *****

وهو يجادل (هيام) في ضرورة التصريح بهذا الحب ،
والمجاهرة به ؟ ..

لساذا فقد الثقة في نفسه ، وفي عاطفته ، لمجرد أن
خالها ألمح له بوجود رجل آخر ، أكثر مناسبة لها ؟ ..
هل أخطأ حقاً في حبه لـ (هيام) .. أم أن الخطأ
يكن فيه هو ؟

وقطع عليه الأب خواطره الحائرة ، وهو يسأله :

— إلى أين ؟

— سأتركك لتستريح قليلاً .

— (هيام) في الخارج .. خرجت لشراء بعض
اللوازم ، ولكن (وفاء) في الحديقة .. أستلقتي بها ؟
— نعم يا عمى .. بالتأكيد .

وتضاعف ارتباكها واضطرابه ، وهو يغلق الباب
خلفه ، وأدرك أنه على أعتاب مرحلة جديدة ..
مرحلة مخيفة ..

***** ٧٣ *****

تطلع إلى (وفاء) ، وهى تطالع أحد الكتب فى الحديقة ، ونغمغم فى أعماقه :

- ما أجملها !! إنها تملك وجهها ملائكيًا ، بمنح الناظر إليها شعورًا رومانسيًا حالمًا .

لم يدر لماذا تتردد إليه كل عواطفه الأولى ، كلما تطلع إلى وجهها ، واقترب منها ، ووقف خلف مقعدها مباشرة ، ثم همس فى صوت مغمم باشتياق لا إرادى :

- صباح الخير يا (وفاء) .

التفتت إليه فى اضطراب واحد ، ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها ، وهى تقول :

- أهلا يا (عصام) .. صباح الخير .

التقط الكتاب الذى تقرأه ، وقال :

- ماذا تقرأين ؟

أجابته وهى تسترد كتابها فى رقة :

- بعض دواوين الشعر .

ابتسم ، قائلاً :

- ما زلت كما أنت يا (وفاء) .. رومانسية حاملة ، تعشق الشعر ، وتبكيها أغنية عاطفية .

حاولت تغيير الموضوع ، وهى تغمغم :

- لقد خرجت (هيام) منذ قليل .

أوما برأسه ، مجيباً :

- أعلم ذلك .. لقد جئت للاطمئنان على صحة والدك ، ووجدته بخير والحمد لله ، ولقد رأيتك تجلسين فى الحديقة ، وأردت أن أجلس معك قليلاً .. هل يضايقك ذلك ؟

- كلا بالطبع .. تفضل ..

جلس على المقعد المواجه لها ، وطفى عليهما شعور بالخرج والارتباك ، كأنهما يلتقيان لأول مرة ، وشملهما الصمت لحظات ، حاول خلالها (عصام) أن يبحث عن كلمات مناسبة ، حتى لفت انتباهه شيء ما فوق المائدة ، أعاده إلى ماضيه فى قوة ..

تلك القوقعة التي أودعها حبهما وعشقهما فيها
مضى ..

واضطربت (وفاء) ، حينما رآته يتطلع إلى القوقعة ،
وأسرعت تضع كتابها فوقها ، لتحجبها عن ناظره ،
إلا أنه أزاح الكتاب ، قائلاً :

— أليست هذه قوقعتنا ، التي دفناها عند قاعدة
الشجرة الكبيرة ، منذ عشر سنوات ؟

هتفت ، وكأنها تنفي عن نفسها اتهاماً خطيراً :
— كلاً .. ليست هي .

حاصرها بنظراته ، وهو يقول :
— بل هي .. لا زلت أذكر شكلها حتى الآن .
— كل القواقع تتشابه .

كان يحاصرها بنظراته ، وكأنما يحاول التسلل إلى
أعماقها ، فأطرقت برأسها فراراً منه ، إلا أنه همس :
— وفاء .. لم نحاولين إنكار كل الأشياء الجميلة
التي كانت تربط بيننا في الماضي ؟

***** ٧٦ *****

أجابته ، وهي تتطلع إلى العشب الأخضر ، الممتد
أمامها :

— هناك أشياء تبقى جميلة ، مادامت ملكاً للماضي
فقط ، فإذا ما امتدت إليها يد الحاضر أفسدتها ،
وأضاعت جمالها .

نغم في حيرة :
— لست أفهمك .

تهتت ، قائلة في مرارة :
— ألم أقل لك ؟ .. كان بعضنا يفهم البعض في
الماضي ، دون أن نفوه بحرف واحد ، أما الآن فلقد
أصبحنا مجرد صديقين ، تربطهما علاقة رسمية ، وهذا
ما ينبغي أن يكون بيننا الآن .

نغم ، وهو ينقل بصره بين وجهها والقوقعة :
— أيمكن أن يكون هذا كل ما تبقى من حبنا
القديم ؟

أشاحت بوجهها ، دون أن تجيب ، وشعر هو
بدافع خفي ، يدعوهُ إلى الاسترسال ، وكأنما أعلن قلبه

***** ٧٧ *****

العصيان على تلك الصداقة المصطنعة ، واستعداد إحساسه
 بالفتاة التي شاركته صباه ، فقال نحوها ، وهو يهمس :
 - مشاعري تعجز عن التفرقة بين الفتاة الجميلة ،
 التي تجلس أمامي الآن ، وتلك الصبية ، التي ربط الحب
 بين قلوبنا فيما مضى ، والتي عاهدتني على أن يبقى حبنا
 أبداً ، وأودعنا معاهدتنا تلك القوقعة .. أنسيت نزهاتنا
 الجميلة عند السواقى ؟ .. أنسيت يوم ألقيت نفسي في
 الترعّة لأنقذك ، على الرغم من أنني لم أكن أجيد
 السباحة ؟ .. أنسيت تشابك أصابعنا تحت تكعيبة العنب ،
 ومعادتنا آنذاك ؟ .. ألم يشهد كل ركن في هذا المنزل
 جزءاً من أحلى وأجمل لحظات حياتنا ؟ .. كيف يمكننا
 أن ننسى كل هذا ، ونتطلع إلى أنفسنا وكأننا ننظر إلى
 شخصين غريبين ، لا يمتان لنا بأدنى صلة ؟
 صمت برهة ، ثم دفع ذقنها بأصابعه ، ليدير وجهها
 إليه ، وهو يقول في رجاء :
 - أيمكن أن ننسى حبنا يا (وفاء) ؟

***** ٧٨ *****

ترقرقت الدموع في عينيها ، وهي تتطلع إليه في
 حيرة ، مغممة :

- (عصام) .. ماذا تريد مني ؟
 تسللت أصابعه ؛ لتلتقي بأصابعها ، وهو يجيب :
 - لا أريدك أن تصبحي قاسية على حبنا إلى هذا
 الحد .

تخسرج صوته ، وجاهدت لمنع دموعها من
 الانهمار ، وهي تقول :

- أنا التي قسوت عليه ؟
 وعلى الرغم من أنه قد أدرك مغزى سؤالها على
 الفور ، إلا أنه تظاهر بعدم الفهم ، وهو يقول :
 - ولكنني لم أتوقف عن حبك لحظة واحدة .
 غمغمت ، وكأنها تستخف بعبارة ، وهي تسحب
 يدها بعيداً :

- أهذا ما قلته لها أيضاً ؟
 عاوده اضطرابه وارتباك ، وهو يغمغم :
 - هي ؟ .. من تقصدين ؟

***** ٧٩ *****

حدجته بنظرة اتهام صامته ، ثم نهضت من مقعدها ،
قائلة :

— معذرة .. إنه موعد دواء أبي ، ولا بد من أن
أقدمه له بنفسى .

ظل مسمراً في مقعده بعد انصرافها ، وتملكه
شعور من يُضَبِّط متلبساً بارتكاب جريمة نكراء ..

إذن فهى تعلم كل شيء .. تعلم حقيقة حبه
لـ (هيام) ، ولقاءاته بها .. الكل يعرف إذن ، ومن
الغباء أن يتصور أنهم يجهلون ، فلا ريب أن عيونهما
تفضح حبهما ، وكذلك لقاءاتهما المستمرة ، وأحاديثهما
الهامسة ..

ولكن لماذا يشعر بالوجل ؟ ..

إنه هو الذى يحرض (هيام) دوماً على كشف
السر ، ويعاتبها على مخاوفها من مواجهة الآخرين ،
فلماذا أصابه كل ذلك الخجل والارتباك ، حينما أدرك
أن (وفاء) تعرف السر ؟

***** ٨٠ *****

الأنه شعر الآن فقط ، أنه قد أجرم في حق حبه
لـ (وفاء) ، بعلاقته بـ (هيام) ؟

الآن (وفاء) صارحته بمعرفتها بعلاقته بـ (هيام) ،
في نفس اللحظة التى استسلم فيها لحبها ، فوضعت في
صورة الشخص المنافق المتلون الكاذب ، الذى يتلاعب
بكل القلوب ، دون أن يخلص في حبه لأحد ؟ ..
أزعجه هذا الاحتمال الأخير ، وجعله يتساءل :
أهو كذلك حقاً ؟

هز رأسه نفياً في قوة ، وهو يقول :
— كلاً .. كلاً .. مستحيل .

وعاد ضميره يصرخ .

— ولم لا ؟ .. أمن الممكن أن يحب القلب اثنتين
في آن واحد ؟ .. لماذا حاولت إذن أن تبث (وفاء)
حبك ، مادمت مخلصاً لـ (هيام) ؟ .. كيف أمكنك
أن تكون مخلصاً معهما معاً ؟ ..

وضع يده على جبينه ، وردد في ألم :

— ولكنى لست من ذلك الطراز المخادع ..

***** ٨١ *****

لا يمكننى أن أكون بكل هذا السوء ، الذى تظنه بى
(وفاء) ، والذى أتصوره فى نفسى الآن ، فأنا أحب
كليهما فى صدق وإخلاص ، وأشعر أنتى لا أقوى
على فراق (هيام) ، وأن شيئاً قوياً يشدنى إلى (وفاء) .
انتفض جسده ، حينما شعر بيد توضع على كتفه ،
وسمع من خلفه صوتاً يقول :

— (عصام) !! .. ماذا بك ؟
التفت إليها فى لطفة ، كطفل تائه وجد أمه ،
وهتف :

— (هيام) ! .. أين كنت ؟
أجابته فى قلق :
— كنت أبتاع بعض اللوازم .. قل لى : لم تبدو
نعساً هكذا ؟

تعلق بيدها ، وكأنما يخشى أن يفقدها ، وراحت
هى تتطلع حولها فى ارتباك ، وهو يهتف :
— إتنى أحتاج إليك .. فى أشد الحاجة إليك .
نعمت فى ارتياح :

— حبيبى .. ماذا بك ؟ .. إتنى لم أرك أبداً على
هذا النحو .

ضغط يدها مغمماً فى توصل :
— سأنتظرك حيث نلتقى ، بعد ساعة واحدة ..
إتنى أحتاج إليك .

حاولت أن تشرح له صعوبة مغادرتها المنزل مرة
أخرى ، إلا أنه رجاها أن تحاول ، فلم تملك سوى
الاستسلام ، مغممة :

— حسناً .. سألحق بك هناك .
أدهشها أن قبّل يدها فى حرارة لم تعتدها ،
وانصرف فى سرعة ..
وفى أعماق قلبها تصاعدت صيحة ..
صيحة قلق وخوف ..

لم يكذبها قادمة نحوه ، حتى اندفع إليها ، وألقى رأسه على كتفها ، غير عابئ برؤية أحد لها ، وشعر بطمأنينة وهو يريح رأسه على كتفها ، مثلما كان يفعل مع أمه ، التي كان يهرع إليها ، كلما استبد به الخوف أو القلق ..

نعم .. إنها تذكره بأمه .. بحنانها وعواطفها المتدفقة ، فلا يشعر بالاطمئنان إلا وهو إلى جوارها .. وأحاطته (هيام) بنظراتها ، وهي تقول في حنان وجزع :

- ماذا بك يا (عصام) ؟ .. لم كل هذا الحزن والاضطراب في عينيك ؟

تأملها في صمت ، ونغم في رجاء :

- (هيام) .. أرجوك .. يجب أن نتزوج في أسرع وقت .

نطق الجملة في لهجة غريق يطلب طوق النجاة ، وشعرت بأنه ينبغي عليها أن تهدئ من روعه ، دون

أن تفكر في أي اعتبار آخر ، فقالت دون تفكير :
- فلنتزوج يا حبيبي .. سأفعل أي شيء تطلبه ، ولكن لا تدعني أراك هكذا .

قبَّل يدها في حرارة ، وهو يقول :

- نعم .. سنتزوج ، ولن يفرق بيننا شيء .. أي شيء .

قبَّلت جبهته ، وهي تستشعر قلقاً خفياً ، على الرغم من كل الإصرار واللهفة في صوت (عصام) ، وعلى الرغم من أن مطلبه هو أعظم أمنية ترجوها المرأة من رجل تحبه ، إلا أن حاستها أنبأتها بأنه وراء هذه اللهفة ، وهذا الإصرار والرجاء ، أمر تجهله ، ويشعر معه (عصام) بما يهدد حبهما ، فارتجفت لهذا الخاطر ، وشعرت أنها لن تسمح لأي شيء بتهديد حبهما ، حتى ولو اضطرت في سبيل ذلك إلى محاربة نفسها ، والدخول في مواجهة جديدة مع عقدها ومخاوفها ..

أما (عصام) ، فقد وجد في هذا القرار الحاسم ، والإصرار عليه ، وسيلة للخلاص من التذبذب والحيرة

التي تمزق نفسه بين عاطفتين ، وانتزاعاً لشعوره
بالذنب ، كلما خفق قلبه لـ (وفاء) ، في فلك واحد
مع خفقاته لـ (هيام) ، وإنهاء للصراع تماماً ..
وقالت (هيام) ، وهي تحاول النفاذ إلى أعماق نفسه :
- هل فكرت جيداً ؟ أمتأكد أنت من أنك
تريد ذلك حقاً ؟

أجابها ، وهو يضغط حروف كلماته :
- نعم ، وأيقنت من أننا قد أخطأنا ، حينما جعلنا
حينما ينتظر لحظة تتويجه كل هذا الوقت .
ظل القلق يملأ ملامحها ، ولكنه ضغط على كفها
في حنان وحب ، مغمغماً :

- دعيني أشعر بموافقتك من القلب .
ابتسمت ، قائلة :
- منذ عرفتك ، وأنا لا أملك سوى الموافقة على
طول الخط .. فقط لي مطلب واحد .
- ما هو ؟

- ألا نخبرهم مسبقاً برغبتنا في الزواج ؟

- أسنعود إلى هذا مرة أخرى ؟

- أرجوك يا (عصام) .. إنني أطلب منك هذا
لينجح زواجنا ، فلست قوية كما تتصور ، وما زلت
أخشى أن تضعفني معارضتهم ، أو نظرات الاتهام في
عيونهم ، لو أعلنناهم برغبتنا في الزواج .. فلنضعهم
ولنضع أنفسنا أمام الأمر الواقع .

- وكيف يتحقق ذلك ؟

- اسبقني إلى (القاهرة) ، وسأعد نفسي للحاق
بك بعد أسبوع واحد ، حيث نتزوج ، ونعود إليهم
زوجين .

- ألن يغضب ذلك خالك ؟

- ربما ، ولكن ذلك يهون أمام خوفي من معارضته
للزواج ، وسأترك له رسالة قبل سفري ، أشرح له فيها
كل شيء .

- ليست هذه هي الصورة ، التي تصورتها
لزواجنا ، فقد كنت أحلم بعرس تتحدث عنه

(الفيوم) كلها ، وبثوب زفاف لك ، تحسدك عليه
الأخريات .

— لست صغيرة تقام لها ليلة عرس ، وترتدى
ثوب زفاف ، فأنا مطلقة ، أكبرك بخمسة عشر عاماً ،
وما دام حبنا يخالف المنطق والتقاليد ، فليكن زواجنا
كذلك .

رَبَّتْ على وجنتها ، مغمماً :

— تلك المرأة ، التي تتحدثين عنها ، أجمل في
نظري من عذارى الدنيا كلها ، وليتك تقنعين بأن
الحب لا يعترف بمنطق أو تقاليد .

ضحكت (هيام) ، قائلة :

— لذلك سأتزوجك .. أليس هذا هو المهم ؟

بدا الارتياح على وجهه ، وهو يقول :

— بلى .. كم أتوق إلى يوم تشاركِتنى فيه حياتى ،
كما شاركتنى قلبى !

أسبلت جفניה ، وشاركته أحلامه ، وهى تغمغم :

***** ٨٨ *****

— أنا أيضاً أتوق لذلك اليوم يا (عصام) ، ولم
يعد يعنينى سوى تحقيقه .

— أحبك يا (هيام) ، وأريد حبك وثقتك .

— أنا أيضاً أحبك أكثر مما تتصور يا (عصام) ،
وأثق فيك كما أثق فى نفسى . وقد كنت قبل حبك
لا أثق حتى فى نفسى .. أحبك .. أحبك ..

سافر (عصام) إلى (القاهرة) ، وانتظر لحاق
(هيام) به ، ليعقدا قرانهما ، وانتهاز فرصة وجوده
فى (القاهرة) ؛ لينهى بعض الإجراءات الخاصة
بالعقارات ، التى آلت إليه من جده ، ولكن انهماكه
بتلك الأعمال لم يمنعه من التفكير فى حياته المقبلة مع
(هيام) ، وشعر بسعادة وارتياح ؛ لحسمه الأمر على
هذا النحو ، فنذ الآن لا ينبغي عليه أن يفكر فى أية
مخلوقة أخرى عدا (هيام) ، أو أن تراحم حبها فى قلبه
أية عاطفة أخرى ، فـ (هيام) هى قدره .. قدره الذى
اختاره بنفسه ، اختياراً قائماً على الحب والمشاركة

***** ٨٩ *****

الوجدانية ، وشعر في اليومين الأولين ، اللذين قضاهما
في (القاهرة) ، أن حبه لـ (هيام) يزداد تأججاً وقوة ،
أو ربما أراد إقناع نفسه بذلك ، بعد اتفاقهما على الزواج ،
وفي لحظات قليلة ، كان طيف (وفاء) يمر أمام عينيه ،
فكان يحاول إبعاده ، قائلاً لنفسه :

— إنه طيف من الماضي ، وحب أصبح ذكرى ،
أما الحاضر والمستقبل ، فهما لـ (هيام) .. (هيام)
وحدها ..

أما (هيام) ، فقد بدت في أحدث حالاتها ، ولقد
استردت ثقتها بنفسها ، واستعادت إحساسها بأنوثتها ،
وبحقها في الزهو بنفسها وجمالها ، والسعادة بكونها أنثى
محبوبة ، يتمناها شاب لنفسه زوجة ، وتحبه هي أيضاً ،
وتستمد سعادتها من سعادته ، وبدت وكأنما نفضت
عن نفسها كل المخاوف ، وصارت مستعدة للتحديات .
ولقد أصبحت أكثر اهتماماً بشبابها وزينتها ، وعادت
تقف أمام مرآتها بالساعات ، تنتقى الأثواب التي
ستحملها معها ، عند سفرها إلى (عصام) ، وهي

***** ٩٠ *****

تتساءل أيها سيروق له ، وقد تناسست عمرها تماماً ،
وبدت وكأن الحب قد أعادها إلى العشرينات ، وراحت
تردد :

— آه يا (عصام) .. ليلتان فقط منذ افترقنا ،
وأشعر أنك قد أوحشتني كثيراً .. ما أقسى الساعات
وأطولها ، حينما تكون بعيداً عني .. كم كنت حمقاء ،
وأنا أبعدك عني .. أية حياة تلك ، التي كنت سأحياها
دون حبك ؟ بعد أقل من أسبوع سأصبح زوجتك ..
فليغفر لي القدر كل مخاوفي السابقة ..

وفي تلك اللحظة فتح الباب ، ودخلت (وفاء) ،
والتفت إليها (هيام) ، والتقى الوجهان ، وكان وجه
(هيام) يشع بالسعادة والجمال ، أما وجه (وفاء) ،
فكان يحمل إلى جوار جمالها شحوباً ..
شحوب يأس ومرارة ..

***** ٩١ *****

مضت لحظات من الصمت ، ثم بدأت (وفاء) ،
الحديث فى وهن ومرارة ، قائلة :

- معذرة .. لم أكن أعلم أنك هنا .. لقد نسيت
أحد كتبى ، وجئت للبحث عنه ، و ..
قاطعتها (هيام) :

- ولماذا الرسميات يا (وفاء) ؟ .. إنه منزلك ،
ويمكنك دخول كل غرفه ، دون استئذان .

لم تجبها (وفاء) ، بل أخذت تبحث عن كتابها فى
هدوء ، وتابعتها (هيام) ببصرها بعض الوقت ، ثم
شعرت بضرورة التحدث إليها ، فسألتها :

- ما رأيك فى ثوبى الجديد ؟
ألقت عليها (وفاء) نظرة عابرة ، ثم عادت تشيح
بوجهها ، وهى تغتمم :

- إنه جميل .
اقتربت منها (هيام) ، وهى تقول :

- (وفاء) .. لم تعاملينى بهذا الفتور ؟ ..
أخطأت فى حقك بشئ ما ؟

حدبتها (وفاء) بنظرة اتهام ، شبيهة بتلك التى
رآها (عصام) فى عينيها من قبل ، وصمتت برهة ،
قبل أن تقول :

- أيتخامرك هذا الشعور ؟

تغممت (هيام) :

لست أظن أننى قد أخطأت فى حقك ، فأت
تعلمين كم أحبك ، وكيف أعتبرك بمثابة أخت صغرى ،
أشعر بمسئوليتى عنها .

قالت (وفاء) فى صوت يحمل رنة تهكية مريرة :
- أظن أنه قد آن الآوان ، لترفعى عن كاهلك
عبء المسئولية ، فلست أحتاج إلى الحب والاهتمام من
أى مخلوق .

وأسرعت تتناول كتابها ، وتهتم بمغادرة الحجره ،
ولكن (هيام) أمسكت بذراعها تستوقفها ، وهى
تسألها فى حيرة :

— (وفاء) .. اصدقيني القول .. أما زلت تحتفظين
بذلك الحب القديم لـ (عصام) ؟
تطلعت (وفاء) إلى عينيها بمزيج من الدهشة
والحزن ، وهى تقول :
— لماذا تطرحين هذا السؤال ؟

هيام :

— أود أن أعرف و ..
قاطعتها (وفاء) بلجة جافة :
— اطمئني .. لقد كان حباً صبيانياً ، ولم يعد
له وجود الآن .

ارتسم الارتياح على وجه (هيام) ، ثم لم تلبث
كلمة (اطمئني) أن قفزت إلى ذهنها ، فأورثتها القلق ،
وجعلتها تتناول يد (وفاء) ، قائلة :
— (وفاء) .. تعالى نجلس معاً .. أشعر بحاجتى
للتحدث إليك .

نمغمت (وفاء) فى جفاء :

— إننى مشغولة الآن .

***** ٩٤ *****

هيام :

— لن أعطلك كثيراً ، فقط أشعر بحاجتى إلى أن
أبوح لك بسر يتعلق بى ، وبصديقك (عصام) .
بدا الاهتمام على وجه (وفاء) الشاحب ، وغلبها
فضولها ، فجلست قبالتها ، على حين أصبلت (هيام)
جفنيها فى سعادة ، وهى تقول :

— آه يا (وفاء) ، لو تعلمين كم أشعر بالسعادة ..
لقد كان هناك حلم جميل يراودنى منذ زمن ، وها هوذا
فى طريقه إلى أن يصبح حقيقة .. حقيقة رائعة ، وما
أجمل أن تتحول أحلامنا الجميلة إلى حقائق ، ولكن
ينبغى أن يبقى ماسأخبرك به سراً بيننا ، إلى أن ينتهى كل
شئ وفقاً لتخطيطنا ، فقد كان من المفروض ألا يعلم
أحد بما سأخبرك به ، ولكن سعادتى أقوى من أن
أكتمها عنك ، كما أتى أثق بك ، وأعلم أنك
مستحفظين بالسر طى الكتمان ، حتى نفاجئ به الجميع
فلقد اتفقنا أنا و (عصام) على الزواج .. سألحق به فى
نهاية الأسبوع إلى (القاهرة) ، حيث نعقد قراننا

***** ٩٥ *****

هناك ، ونعود إلى (الفيوم) زوجين ، ولقد اتفقنا
على ذلك ، حتى لا نجشم أنفسنا مشقة رفض الآخرين ،
ومحاولات إقناعهم ، فنحن يحب بعضنا البعض حباً
جماً ، لا يمكنك تصويره .

لم تلحظ (هيام) ، وهي تسترسل في حديثها ،
كل ذلك الألم ، الذي ارتسم في ملامح (وفاء) ،
حينما شعرت أن آخر خيوط الأمل تفلت من بين
أصابعها ، وأن (عصام) قد صار ملكاً خالصاً
لـ (هيام) ، وأنها قد فقدته إلى الأبد ، وانتابها شعور
قوى بالتعاسة ، وظلم الحياة والقدر لها ..

ولولا أن السعادة تلهي المرء عن أحزان الآخرين ،
لذهلت (هيام) من فرط الحزن والألم والمرارة في
عين ووجه (وفاء) ، التي بدا حديث (هيام) كخناجر
تغوص في قلبها ، حتى أنهت تلك الأخيرة حديثها ،
قائلة :

— ما رأيك في هذه المفاجأة ؟

***** ١٦ *****

ترقرقت الدموع من عيني (وفاء) ، وهي تقول
في وهن وخفوت :

— ألف مبارك .. أتمنى لكما التوفيق .

واندفعت تغادر الحجرة ، قبل أن تلمح (هيام)
دموعها ، فجمدت هذه الأخيرة في مكانها ، وتلاشت
فرحتها ، وأدركت لأول مرة وقع المفاجأة على ابنة
خالها ، ونغمغت في ألم :

— إذن فالحب القديم لم ينته بعد .. ما أغبانى ! ..
كيف لم ألحظ ذلك ؟ .. كيف لم أنتبه إلى ما طرأ عليها
في الآونة الأخيرة .. لقد ذبلت وشجبت ، وكأنها
لاحظت كل شيء منذ البداية .. كانت تعرف أن
(عصام) يحبني ، وأنتى أحبه .. يا للقسوة !! .. لقد
تعذبت المسكينة كثيراً ، بعد أن عادت محملة بأحلام
حب قديم ، وآمال في إيقاظ ذكريات الصبا السعيدة ،
ولكننا حطمنا أحلامها وآمالها بكل القسوة ، وأهتينا
عواطفنا وأنايتنا عن التفكير — ولو لحظة — في هذه

***** ١٧ *****

(٧ - وداعاً يا حبيبى - زهور)

المسكينة ، التي ظلت ترقب تحول مشاعر حبيبها عنها في صمت وشقاء .

وأفسد عذاب الضمير فرحة (هيام) ، التي كانت تملأ جوارحها منذ لحظات ، فارتمت على فراشها ، وبكت وهي تضرب وسادتها بقبضتيها ، هاتفة :

— لم أكن أريد هذا .. لم أكن أرغب في أن يتعذب أى مخلوق بسببي .. لا أريد أن أبني سعادتي على شقاء الآخرين وآلامهم ، وخاصة أنت يا (وفاء) .. إنك وخالي أحب الناس إلى قلبي بعد (عهام) .. رحماك ربى !! لقد بدأت أولى عذابات حبي .

ولكن أنانية الحب عادت تستيقظ داخلها ، وهي تستطرد :

— لا .. لن أسمح لأى شيء بإفساد سعادتي .. لا شيء سيثقل على ضميري ، فليس ذنبي أنه لم يعد يحتفظ لها بذلك الحب الصبياني القديم .. ليس ذنبي أنه قد أحبنى أنا ، واختارنى أنا زوجة له .. إننى لم أحاول أن آخذه منها ؛ لأنه لم يكن لها منذ البداية .. كان لى ..

لى وحدى .. ومهما أحبته (وفاء) ، فلن تحبه مثلما أحبه أنا .. إنه يجرى فى عروقي ، ويحيا فى أنفاسي .. إنه من حقى .. من حقى وحدى ، فأنا وهو شيء واحد ، ولن تحبه مخلوقة أخرى مثلما أحبيته .

وأسندت رأسها إلى الجدار ، مردفة :

— ليتك تقدرين مشاعري يا (وفاء) .. إنك مستنسين مع الوقت ، وستجدين فى المستقبل من يعوضك حبك ، فأنت شابة ، والمستقبل أمامك ممتد ، أما أنا ففى خريف العمر ، أضعت عمري فى أكاذيب وشقاء وحرمان ، وأصبح من حقى أن أنعم ببعض السعادة ، قبل أن تملأ التجاعيد وجهي .. ساعيني يا (وفاء) .. أرجوك .. ساعيني .. ساعيني .. وأجهشت ببكاء حار ..

عادت (هيام) من الخارج ، لتجد خالها في ردهة
القبلا ، مع شخص آخر ، فاقتربت منهما في تساؤل ،
وقدم إليها خالها الشخص الآخر ، قائلاً :

- الدكتور (صلاح) .. صديق وزميل الدكتور
(رفيق) .. لقد أرسله لفحص حالة (وفاء) .

صافحها (صلاح) سريعاً ، وهو يقول :
- تشرّفنا يا سيّدتى .

ثم التفت إلى خالها ، قائلاً في جدّية :

- كما أخبرتك من قبل .. ابنتك تحتاج إلى عناية
فائقة ، ومراقبة دقيقة ، فلديها الرغبة في التخلص من
حياتها .

هتف الأب في جزع :

- أتعنى أنها ستحاول الانتحار ؟

- ربما ، وقد لا يتخذ ذلك مظهراً عنيفاً ، فمجرد
استمرار حالة الحزن ، وإضرارها عن الطعام والشراب
قد يؤديان إلى النتيجة نفسها .

- ربّاه !! لن أحتمل إصابتها بأدنى مكروه .

- سأبذل أقصى ما بوسعى ، ولكن هل تعلم شيئاً
عن سبب تدهور حالتها النفسية ؟ .. من الواضح أنها قد
تعرضت إلى صدمة شديدة .

حدّج الخال (هيام) بنظرة طويلة ، ثم هزّ رأسه ،
قائلاً :

- الله وحده يعلم يا دكتور .

امتلاّت نفس (هيام) بالرعب والفرع ، وتصوّرت
نفسها القتالة ، المستولة عما أصاب (وفاء) ، على حين
قال الطبيب :

- ينبغي أن نجلس معاً إذن ، ونناقش كل
الاحتمالات ، وقد يستدعى الأمر نقلها إلى مستشفى
بخاص للأمراض النفسية ، المهم أن نوقف الآن تدهور
حالتها ، وسأرسل ممرضة وبعض زجاجات (الجلوكوز) .
شعرت (هيام) بفداحة جرمها في حق الفتاة ،
ولم تعد قادرة على احتمال عذاب ضميرها ، الذي يصرخ
منذ امتنعت (وفاء) عن الطعام ، وتدهورت حالتها ،

وهاها ما ألحقته بأحب اثنين إلى قلبها .. خالها و (وفاء)
فأسرعت تصعد إلى حجرة (وفاء) ، ولم تكذ تنيرها
حتى فوجئت بـ (وفاء) تصرخ :
— أطفئي الأنوار .

أطاعت (هيام) ، واقتربت من المقعد الذى تجلس
عليه (وفاء) ، وجثت إلى جواره على ركبتيها ،
وأمسكت بمسندة ، مغممة :

— (وفاء) .. أما زلت ترفضين التحدث معي ؟
لم لا تقولين أى شيء ؟ .. قولى إنك تكرهينى ،
وتحقدين على ، ولكن لا تواصلى صمتك هكذا ، فإزلت
ابنة عمك ، وأختك الكبرى ، وأمك الثانية التى تحبك
وتتألم لرؤيتك هكذا .

ظلت عينا (وفاء) جامدتين ، وهى تتطلع أمامها
في شروء حزين ، فأضافت (هيام) فى أسف :

— (وفاء) .. حينما أحببت (عصام) ، لم أكن
أعلم أنك مازلت تحبينه ، فقد تصوّرت أن حب صبا كما
صار مجرد صداقة .. ولو علمت ما سمحت لحبه

***** ١٠٢ *****

بالتراجع فى قلبى أبداً .. إننى أشعر بذنب عظيم تجاهك
ولكن صدقيني ، لو أن الأمر بيدى الآن لتخلّيت لك
عنه ، اطلبى منى الانتحار ، أو اقتلينى بنفسك ،
ولكن لا تطالبينى بالتخلّى عنه ، فأنت لا تعلمين كم
أحبه ، وكيف يتغلغل حبه فى خلاياى .. ارحمى
يا (وفاء) ، وارأف بحالى ، وتوقى عن تعذيبى بعذابك ،
فلم أعد أقوى على احتمال هذا .

مدّت أناملها لئلمس وجنتها ، ولكن (وفاء)
تراجعت فى حدة ، وجسدها يرتجف ، فخفضت
(هيام) وجهها فى انكسار ، وهى تقول :
— إذن فأنت ترفضين أن تسامحينى .

فجأة أضيئت الحجرة مرة أخرى ، ودخل الخال
بعينين يطل منهما اليأس ، وراح يراقب ابنته فى حزن
والم ومرارة ، واتسعت عينا (هيام) فى فزع ، وهى
تحدّق فى وجه (وفاء) ، وقد هالها ما رآته عليه من
شحوب وحزن وذبول ، ووجدت نفسها تنحنى على
يديها تقبّلهما ، وهى تبكى فى حرارة ، مردّدة :

***** ١٠٣ *****

— (وفاء) .. (وفاء) .

شعرت بدموع الفتاة تسقط على وجهها ، وجسدها يرتجف في قوة ، ثم فوجئت بها تصرخ في هستيرية :

— دعوني وحدي .. دعوني وحدي .

قال الخال في ألم :

— اهدئي يا بنيتي .. سنفعل .. سنتركك وحدك ..

فقط اهدئي .

وانحنى يعاون (هيام) ، التي صارت أشبه بتمثال فاقد الحياة ، على النهوض ، وغادر الحجرة ، بعد أن أطفأ الأنوار ، فهتفت (هيام) في استعطاف :

— خالي .. يجب أن نفعل شيئاً .. يجب أن نفعل

شيئاً من أجلها .

تطلع إليها بنظرة لوم وعتاب ، وهو يقول :

— أنت وحدك تعلمين ما الذي ينبغي عمله .

تراجعت في ذعر ، ثم ألصقت رأسها بالحائط ،

وهي تقول في جزن ومرارة :

— إذن فأنت أيضاً تطالبني بالتخلي عن (عصام) .

***** ١٠٤ *****

اقترب منها ، قائلاً :

— لست أطلبك بشيء ، ولست أحاول أن

أفرض عليك شيئاً ، ولكنني مستعد لأن أجثو على

ركبتى أمامك ، لترحمي عذاب ابنتي الوحيدة .. لقد

عاملتك دوماً كابنة لي ، وأعطيته نفس الحب والحنان

ولم أقصّر في حقك شيئاً ، ولست أطلبك برد الثمن ،

فالآباء لا يطلبون مقابل حنانهم على أبنائهم ، ومازلت

أحبك ، وأعتبرك في منزلة (وفاء) تماماً ، ولكنني

أتألم ؛ لأنني أعلم علة (وفاء) ، وأعرف أنك وحدك

يمكنك إنقاذها ، لو تصرفت كأخت كبرى ، تضحى

من أجل أختها الصغرى ، وأعلم أنها ليست بالتضحية

اليسيرة ، ولن أحدثك عن فارق السن بينك وبين

(عصام) ، والذي سيجعلك تذبلين ، في الوقت الذي

تردهر فيه زهرة رجولته وشبابه ، والذي سيحيل حبه

لك يوماً إلى نوع من الشفقة .. إنه الواقع الذي تفرين

منه يا بنيتي .. لأنني لم أقل هذا منذ البداية ، على الرغم

من أنني قد لاحظت حبكما منذ منبته .. أتدرين لماذا ؟ .

***** ١٠٥ *****

لأن خبرتي في الحياة علمتني أنني مهما قلت ، ومهما
شرحت وحذرت ، فلن تستجيب لي أبداً ؛ لأن الحب
دائماً أقوى من كل منطق ، ويرفض كل التحذيرات ،
مهما كان صاحبه واثقاً من عواقبه .. ولأنتي لم أقو
على مواجهتك أيضاً ، ولكن ليس من العدل الآن أن
نتجاهل الحقيقة ، وفي أحد أركانها فتاة تتعذب ، وتكاد
تلقى حتفها ، بسبب علاقة غير منطقية .

غمغت (هيام) ، وكأنما تتمسك بآخر خيوط
الدفاع عن حبها :

— ولكن ابتعادي لن يحوّل قلب (عصام) إليها ،
فهو يحبني أنا ، وليس ذنبي أن قلبه لم يعد يحبها .
هز رأسه ، قائلاً :

— أخطأت في ظنك يا بنيتي ، ف (عصام) لم
يتوقف أبداً عن حبه لـ (وفاء) ، ولكن ظهورك في
حياته أربك عواطفه ومشاعره ، فأصبح غير قادر على
أن يحكم قلبه بين عاطفتين .
غمغت في تخاذل :

***** ١٠٦ *****

— أتغني أنني لو ابتعدت عنه ، فإنه ..
قاطعها مكلاً :

— فإن حبهما سيأخذ مساره الطبيعي .
انفجرت باكياً ، وألقت نفسها بين ذراعي خالها ،
هاتفة :

— هذا يفوق احتمالي .

مسح بيده على شعرها ، مغمغماً :
— أعلم يا بنيتي أنه خيار صعب وقاس ، ولكن
تذكرى أن عذاب ضميرك سيكون أكثر صعوبة
وقسوة ، لو حطمت قلب هذه الفتاة المسكينة .
غمغت ، وهي تنتحب :

— سأفعل كل ما تريده يا خالي .. سأضحى بحبي
وسعادتي ، مادام هذا سينقذ (وفاء) ، ويحقق لها ،
ولـ (عصام) ما يصبوان إليه من معادة .
شعر خالها بقلبه يتمزق ، وهو يسألها :
— أتعدينني بذلك يا (هيام) ؟

***** ١٠٧ *****

دفتت رأسها في صدره ، وازداد نحيبها ، وهي

نحيب :

— نعم يا خالي .. أعدك .

عاد يسألها في قلق :

— وكيف ستتصرفين الآن يا بنيتي ؟

مسحت دموعها ، وهي تقول :

— ينبغي أن نطلب من (عصام) العودة أولاً ،

من أجل (وفاء) .. أما أنا فلا تقلق بشأني .. فسأدير

أمرى بنفسى .

حاول خالها أن يقول شيئاً ، ولكن شففته نحوها

نعمته ، فعجز عن النطق ، على حين أسرعته هي إلى

حجرتها ، وأغلقتها خلفها ، وأطلقت العنان للدموعها ،

وهي تبكي حبيب قلبها ..

حبيبها السابق ..

***** ١٠٨ *****

١٢ — وداعاً يا حبيبى ..

توزعت مشاعر (عصام) ، خلال الأيام التي

قضاها في القاهرة ، ما بين اللفة والملل .. اللفة في

انتظار مقدم (هيام) ، وعقد قرانه عليها ، والملل من

شعوره بالوحدة والاعترا ببعيداً عنها ، وأخذ يتعجل

الأيام الباقية على لحاقها به ، كما وعدته ، دون أن يعلم

شيئاً عن الأحداث الأخيرة ، التي جرت في غيابه ..

وبينما كان يعبر بهو الفندق ، في ذلك اليوم ، ناداه

موظف الاستقبال ، فذهب إليه يسأله :

— هل من جديد ؟

أجابه الرجل في احترام :

— نعم يا أستاذ (عصام) ، لقد وصلتك برقية

منذ ساعتين .

أدهشه ذلك ، وتملكته الوسوس ، حتى لقد خشي

أن يقرأ البرقية فور تسلمها ، وتركها حتى صعد إلى

غرفته ، ثم أسرع يفضها ، وقرأ فيها :

***** ١٠٩ *****

— (عصام) .. لن يمكنني الحضور إليك كما وعدتك .. عد سريعاً .. (وفاء) مريضة ، وهى فى أشد الحاجة لوجودك .. (هيام) .

أصابه انزعاج شديد ، وظل جامداً فى مكانه لحظات ، لا يدري السبب الحقيقى لما أصابه .. أهو شعوره بأن القدر يتدخل ليحول بينه وبين الزواج من (هيام) ؟ .. أم هو قلقه لما جاء بالبرقية من مرض (وفاء) ؟ ! ..

وأخذ يردد لنفسه :

— أيمكن أن تكون حالة (وفاء) بهذا السوء ؟ .. أيمكن أن أكون أنا السبب فى ذلك ؟ .. ولم لا ؟ .. إننى أعرف (وفاء) جيداً .. أعرفها منذ الطفولة .. إنها رقيقة حساسة ، تتألم لأتفه الأشياء .. إنها مثالية أكثر مما ينبغى ، وهذا النوع من المثالية يصيب صاحبه دوماً بالآلام والعذاب .

وتهالك فوق مقعده ، وهو يردد :

— لن أسامح نفسى أبداً ، لو أنتى السبب ..

***** ١١٠ *****

فما زلت أحبها .. نعم .. أحبها من كل قلبى ، ولن أرضى لنفسى أبداً أن أكون السبب فى آلامها .. ليتها أدركت حقيقة مشاعرى حينما تحدثت إليها فى الحديقة .. ليتها بدلا من طردى من حياتها وتلك النظرة المعاتبة ، قد فتحت لى قلبها .. عندئذ ربما .. ربما ..

توقف عند تلك الكلمة الأخيرة ، ليسأل نفسه :
— ربما ماذا ؟ .. أكان من الممكن أن يجعلنى هذا أحيـد عن مشاعرى تجاه (هيام) ؟
وأنغمض عينيه مغمغماً :

— لا وقت الآن للغيرة وعقد المقارنات ، يجب أن أعود الآن إلى (الفيوم) ، لأكون إلى جوار (وفاء) .. لن أتخلى عنها أبداً .. أبداً ..

استقبلت (هيام) الدكتور (رفيق) فى ردهة الفيلا ، واستدعت خالها لمقابلته ، وسأله الدكتور (رفيق) فى اهتمام :

— كيف حالها الآن ؟

***** ١١١ *****

أجابه الأب ، والحزن يعتصره :

— إن حالتها تزداد سوءاً .

عاد الدكتور (رفيق) يستفسر قائلاً :

— لم لم توافق على اقتراح الدكتور (صلاح)

بنقلها إلى المصلحة فوراً ؟ .. إنه متخصص في مثل هذه

الحالات .

غمغم الأب في شروء :

— إننا نعلق آمالنا على شخص ما ، ننتظر

حضوره ، فقد يكون علاجها على يده .

أدرك الدكتور (رفيق) مغزى الكلمات ، فقال :

— أمي تحبه ؟

أوماً الأب برأسه إيجاباً ، فاستطرد الدكتور

(رفيق) :

— هذا إذن هو سبب مرضها .. أرجو أن يكون

ذلك الشخص نبيلاً ، حتى لا يتخلى عنها .

ولم (هيام) تهبط في درجات السلم ، فأردف

في خفوت :

***** ١١٢ *****

— فأقسي الآلام هي آلام الحب .

ثم نهض يصافح الأب ، قائلاً :

— كنت أود أن أبقى معكم وقتاً أطول ، في ظل

هذه الظروف ، ولكن المستشفى والمرضى ..

قاطع الأب مغمماً :

— إنني أقدر ذلك ، وأشكر لك اهتمامك ،

وإرسالك الدكتور (صلاح) .

— لا تقل هذا .. أنت تعلم مقدار صداقتنا ..

وعلى أية حال ، سأتصل بكم فور وصولي إلى

الإسكندرية ، وأرجو أن أسمع أنباء طيبة ، وسأحضر

في أقرب وقت للاطمئنان عليها بنفسى ، وسيدنى

الدكتور (صلاح) إلى جوارها .

— شكرأيا (رفيق) .. شكرألك .

اقتربت منهما (هيام) ، وقالت :

— سأوصل الدكتور (رفيق) إلى البوابة الخارجية .

غمغم الدكتور (رفيق) :

— لاداعى .. سوف ..

***** ١١٣ *****

قاطعته هامسة :

— أريد التحدث معك .

* * *

قالت ، وهما يجتازان حديقة المنزل :

— ترى هل قدرت صراحتي معك يا دكتور

(رفيق) ، حينما أخبرتك أنني لا أستطيع تلبية رغبتك

في الزواج مني ، على الرغم من احترامي الشديد لك ؟

أوما براسه إيجاباً ، وهو يقول :

— نعم ، فأنا أحترم الصراحة دوماً ، كما أنني

من أنصار أن يقوم الزواج بين طرفين على أساس تكافؤ

مشاعرهما ، ولم يكن ذنبك أنك لا تحملين نحوى نفس

المشاعر التي أحملها أنا لك ، فهذا مما لا يملكه المرء .

وابتسم ، وهو يستطرد في حزن :

— ربما لو لم أكن رجلاً عملياً ، أنظر إلى الأمور

دوماً بواقعية وتفاؤل ، لتحولت إلى مريض يائس ،

مثل ابنة خالك .

حملت لهجتها تقديرها ، وهي تقول :

* * * * * ١١٤ * * * * *

— هذا يزيد من تقديري واحترامي لك ، فأنا

معجبة دوماً برجاحة عقلك ، وحسن تقديرك للأمور .

توقف الدكتور (رفيق) بغتة ، وتطلع إليها ،

قائلاً :

— (هيام) .. لست أظن أنك قد صحبتني إلى

الخارج للإشادة بي فحسب .. أنت تريدني التحدث

معي عن أمر آخر .. أليس كذلك ؟

— هذا صحيح .. اسمع يا دكتور (رفيق) ،

سأطلب منك شيئاً ، وأرجو ألا تسألني السر وراء

مطلبي ، سواء رفضته أو قبلته .. في الوقت الحاضر

على الأقل .

تطلع إليها في حيرة ، مغمغماً :

— هيام .. إنك تقلقيني ، ومع ذلك أعدك بأنني

سأوافق على طلبك مسبقاً ، ولن أسألك عن سببه أبداً .

ترددت (هيام) لحظة ، ثم قالت :

— أريد أن أسافر معك إلى (الإسكندرية) ،

وأعمل في مستشفاك .

* * * * * ١١٥ * * * * *

حديق في وجهها بدهشة ، وهو يقول :

— وأى عمل ستعملينه هناك ؟

— أى عمل .. إننى أجد التريض بعض الشيء ،
كما يمكننى القيام بأى عمل إدارى تطلبه .

زادت دهشته ، وهو يسألها :

— ولكن لماذا ؟ .. كيف ستركين منزلك
وخالك ، وابنة خالك ؟

— ألم تعدنى بالأى أسئلة ؟

— أنت واثقة من أنه قرار صحيح ؟

— تمام الثقة ، وأرجو أن تساعدنى على تحقيقه .

— حسناً .. لقد وعدتك ، ومادامت هذه رغبتك

فسأحققها لك .

— أريد منك أن تعدنى بشىء آخر .

— ما هو ؟

— ألا تخبر أحداً بسفرى أو مكانى .

— كيف ذلك ؟ .. أتريدى إخفاء الأمر عنهم ؟

***** ١١٦ *****

— أرجوك يا دكتور (رفيق) .. لى أسبابى
الخاصة .

— ولكن خالك ! .. إن ذلك سيورثه حزناً وهمماً
هو فى غنى عنهما ، فى ظل ظروفه الحالية .

— سيقدر خالى ذلك ، بل ربما رحب به ، وعلى

كل ، سأترك له رسالة ، أوضح له فيها كل شىء ،
دون أن أطلععه على مكانى ، إلى أن يأتى الوقت المناسب .

— برغم عدم فهمى للأمر ، إلا أننى أعدك بهذا

أيضاً ، وإن كنت أرجو أن تفسرى لى الأمور فيما

بعد ، على الأقل لتخفى من حيرتى ، وإحساسى

بالذنب تجاهك ، وتجاه خالك ، إزاء هذا التصرف .

— أشكرك يا دكتور .. أشكرك جداً .. متى

تسافر إلى (الإسكندرية) ؟

— الليلة ، فى الساعة مساءً .

— متجدينى فى انتظارك بالمحطة ، ومرة أخرى ،

أكرر شكرى لك .

***** ١١٧ *****

وصافحها (رفيق) ، وانصرف ، ولكن علامات
التساؤل والحيرة لم تفارق وجهه وأعماقه أبداً ..
أبداً ..

هبطت (هيام) في درجات السلم في بطاء ، وهي
تحمل حقيبتها ، تمهيداً للرحيل ..

وفجأة رآته يعبر الردهة مهرولا ، ويلتقي بها على
السلم ، ووقف كل منهما أمام الآخر جامداً برهة من
الوقت ، وتشابكت نظراتهما ، وجاء لقاؤهما على
عكس ما توقعاه ، وخططا له ، وتمنت (هيام)
لو توقف الزمن بعض الشيء ، وطال لقاؤهما الصامت ،
حتى ترتوى عينيها برؤيته ، إلا أنه حطم أمنيتهما في
قسوة ، وهو يسألها في لفة :

— أين هي ؟

أجابته في خفوت :

— في حجرتها .. اصعد إليها .

تجاوزها في لفة ، وهو يسرع نحو حجرة (وفاء) ،

***** ١١٨ *****

وتابعته هي ببصرها في ألم ، ثم أطرقت برأسها في حزن
واستسلام ..

ورأى الأب (عصام) يندفع إلى حجرة ابنته ،
قهلت أساريره ، واندفع نحوه يصافحه ، هاتفاً
في همس :

— (عصام) ؟! .. حمداً لله أنك جئت يا ولدي ..
إن (وفاء) مريضة للغاية .

صافحه (عصام) في شروود ، واتجه نحو فراش
(وفاء) ، فأشار الأب إلى الممرضة أن تتبعه إلى الخارج ،
وأغلق الباب خلفه ، وترك (عصام) يجلس على طرف
الفراش ، وقد مزقه الألم لرؤية (وفاء) على هذه
الصورة ، في شبه غيبوبة ، غائرة العينين ، تحيط بجفنيها
هالات سوداء ، وقد شحب وجهها في شدة ، قال
نحوها يهمس :

— (وفاء) .. حبيبتي .. لن يرضيك أن تفعل بي
ذلك .. فأنا أحبك .. أحبك أكثر مما كنت أنا نفسي
أتصور ، وليس أقسى على الحب من أن يرى حبيبته

***** ١١٩ *****

تدوى وتحتضر أمامه ، دون أن يجد ما يفعله من أجلها ،
والأكثر قسوة أن يشعر أنه سبب آلامها ..

قد لا تصدق شياً من قولى ، ولست ألومك على
ذلك ، وقد تظنين أننى مخادع ، لا قلب له ولا ضمير ،
لأنه يبث عواطفه لاثنتين ، ويوزع مشاعره على قلبين ،
ولكن هذا غير حقيقى ..

لست أنكر أننى قد أحببت (هيام) .. جاء وقت
شعرت فيه بصدق هذا الحب فى قلبى ، ولكن النفس
تجهل أحياناً حقيقة مشاعرها ، تماماً كما كنت أجهل
مبلغ حبنى لك ..

لقد قابلت (هيام) ، وأنا فى أسوأ حالاتى النفسية .
كنت أشعر بالمسئولية والوحدة ، بعد وفاة أبوى ،
وكنت قد تجاوزت أزمة عاطفية ، مع إحدى
الفتيات الأمريكيات ، وكنت أنت بعيدة ، فوجدت
فى (هيام) الفهم والتقارب ، والأمومة التى حرمت
منها ، فاندفعت بكل عواطفى إليها ، ووجدت فى
مشاعرها الحارة ، وعواطفها المحرومة ما يعوضنى عما

***** ١٢٠ *****

أفقدته ، وعندما ظهرت أنت فى حياتى مرة أخرى ،
أربكت مشاعرى وعواطفى ، ورأيت فىك حبنى القديم ،
الصادق النقى ، الذى لا تشوبه مشاعر افتقاد ابن لحنان
الأم ، ولا تقيده أغلال متاعب نفسية .. ولكن إحساسى
بالالتزام تجاه (هيام) ، التى أحببتى بكل صدق
وإخلاص ، وتفان ، وعدم قدرتى - لوقت طويل -
على تفسير حقيقة مشاعرى نحوها ، وتجاهلك لحبنى
القديم .. كل هذا حال دون أن نضع الأمور فى نصابها
الحقيقى ، ومنعنى من رؤية حبنى لك ، والاعتراف به .

نمغمت فى وهن ، وهى مغمضة العينين :
- (عصام) .. لا تحاول أن تؤثر فى ، بدافع
العطف أو الشفقة ، وتأكد أننى حتى ولو فارقت
الدنيا ، فلن أرحل عنها حاقدة عليك أو عليها .

بلل الدمع خدي ، وهو يقبّل يدها ، قائلاً :
- صدقنى هذه المرة .. لقد تصورت فى
وقت ما أننى أحبكما معاً ، ولكننى خلال الطريق من
(القاهرة) إلى (الفيوم) ، تكشفتم لى الحقيقة شيئاً

***** ١٢١ *****

فشيئاً .. حقيقة أننى أبداً لم أحب سواك ، ولست أحمل
مشاعراً لغيرك .

فتحت (وفاء) عينيها ، وتطلعت إليه لأول مرة ،
منذ مجيئه ، وارتسم على شفثيها شبح ابتسامة ، ورفعت
يديها الرقيقتين تتلمس وجهه في رفق ، فتناولهما في
راحتيه ، وقبَّلهما في حب وحنان ، ثم همس :

— (وفاء) .. أتقبلين الزواج منى ؟

أومأت برأسها موافقة في بطاء ، وهى تحتفظ بعينيها
مفتوحتين ، حتى لا يغيب عنهما ، وانتقلت قبلاته إلى
جبينها ووجنتيها ، وشعر أخيراً أنه قد رسا على مرفأ
الحب الوحيد في حياته ، وأن (وفاء) قد استولت على
قلبه ، لا ينازعها فيه أحد ..

وخلف الباب ، جففت (هيام) دموعها ، بعد
أن سمعت ورأت نهاية حبها ، وضياع حلمها الجميل ،
الذى شعرت دوماً بأنه أجمل من أن يستمر حقيقياً ،
وبدأت تهبط في درجات السلم ، وتجر خلفها أحزانها

***** ١٢٢ *****

الثقيلة ، وحبها الجريح ، وغادرت منزل خالها ..
إلى الأبد ..

بعد شهرين من رحيل (هيام) ، وقف الأب
خلف زجاج نافذة الفيلا ، يراقب فى ابتهاج ابنته
(وفاء) ، وقد عادت إلى إشراقها ونضارتها ، وهى
تضحك فى سعادة ، مع زوجها وحبيبها (عصام) ،
فى أثناء جلوسهما معاً فى الحديقة ، ولكن شيئاً ما كان
يفسد بهجته ، ويضفى على وجهه ملامح الحزن والألم ،
وهو يتذكر تلك الرسالة ، التى تركتها (هيام) قبل
رحيلها ، والتى حرص على إخفائها عن الجميع ،
حسباً أرادت ، ولكنه لا يستطيع كبح دموعه ، كلما
تذكر كلماتها ، التى تقول :

— « خالى وأبى العزيز ..

هأنذا أنى بوعدى لك ، وأرحل بعيداً ، كيلا
أصبح عقبة أمام قلبين متحابين ، ولكى تعود السعادة
لترفف على هذا البيت ، الذى عشت فيه أجمل سنوات

***** ١٢٣ *****

عمرى .. اطمئن ، فأنا فى خير حال ، وسأبذل قصارى
جهدى ؛ لأنتصر على آلامى ، وأداوى جراح نفسى .
لا تخبر أحداً بأمر رسالتى ، وسأعمل على لقائك يوماً ، فى
الوقت المناسب .. مرة أخرى أريد منك أن تطمئن إلى
أنتى فى خير حال ، وثق أنتى سأحيا ما بقى من عمرى
على ذكرى حبكم ، الذى لا يفارق نفسى أبداً .. أنت
و (وفاء) .. و (عصام) ..

ابنتك المخلصة

(هيام)

وعاد الأب يطوى أحزانه مع الخطاب ، وعاد
يتطلع إلى الزوجين ، وقد استغرقتهما السعادة ،
وابتسم ..

وابتسمت الدنيا ..

(تمت بحمد الله)

عاشت حياتها تخشى الارتباط ، بعد تجربتها
المريرة ، ثم اقتحم هو حياتها وقلبها ، ودفعها إلى
خوض التجربة مرة أخرى ، وعاد بعدها يضعها أمام
أصعب اختيار .. إما أن تتمسك بأنانية الحب ، أو
تهتف بقلب جريح : وداعاً يا حبيبى .

الزهرة القادمة

(٢٧)

(حى المعذب)

أ. شريف شوقى



المؤلف



١. شريف شوق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

وداعاً يا حبيبى

عاشت حياتها تخشى الارتباط ،
بعد تجربتها المريرة ، ثم اقتحم
هو حياتها وقلبها ، ودفعها إلى خوض
التجربة مرة أخرى ، وعاد بعدها يضعها
أمام أصعب اختيار .. إما أن تتمسك
بأنانية الحب ، أو تهتف بقلب
جريح : وداعاً يا حبيبى .



هـ

الضمن فى مصر

وما يعادل دولاراً أمريكياً فى سائر الدول العربية والعالم